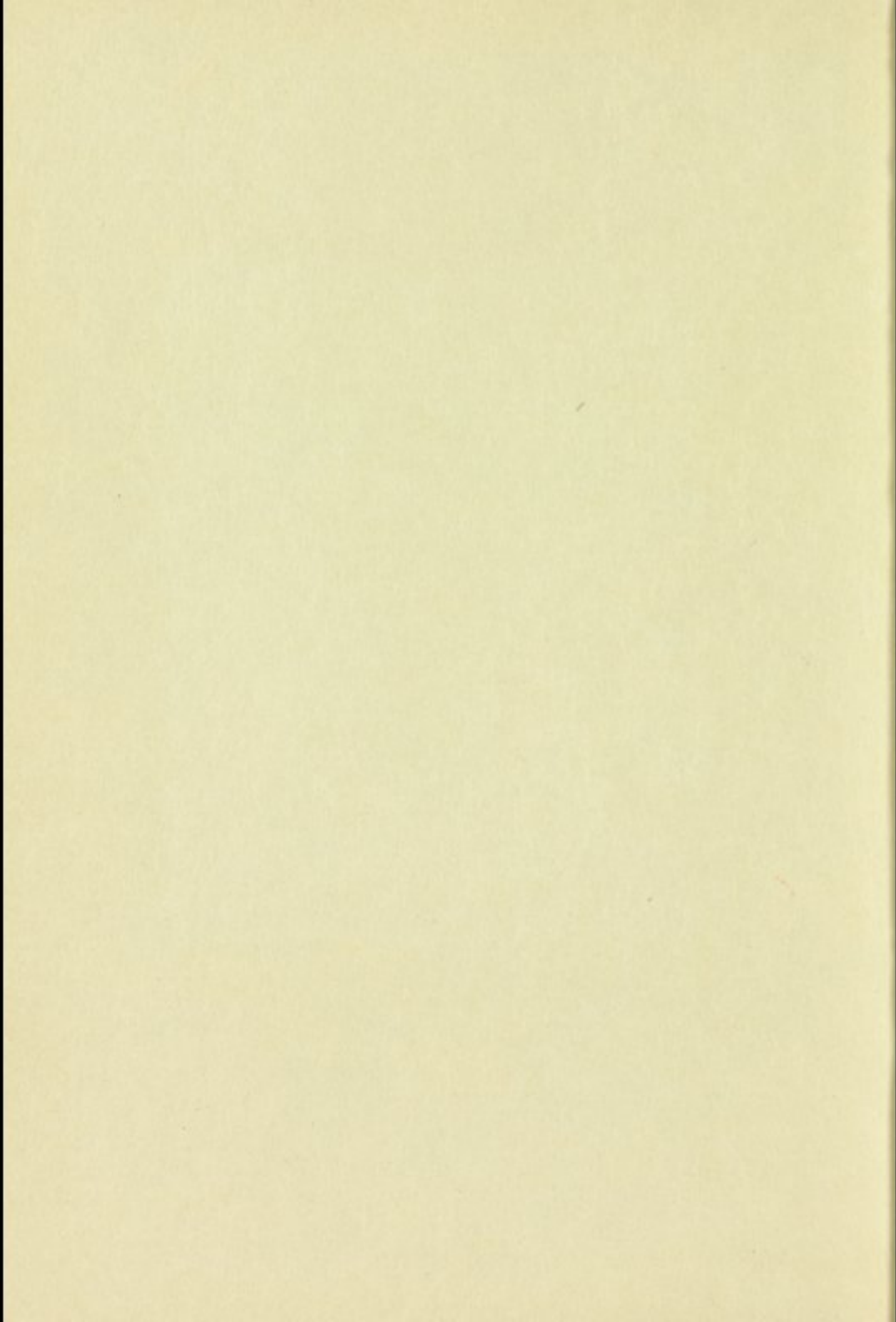
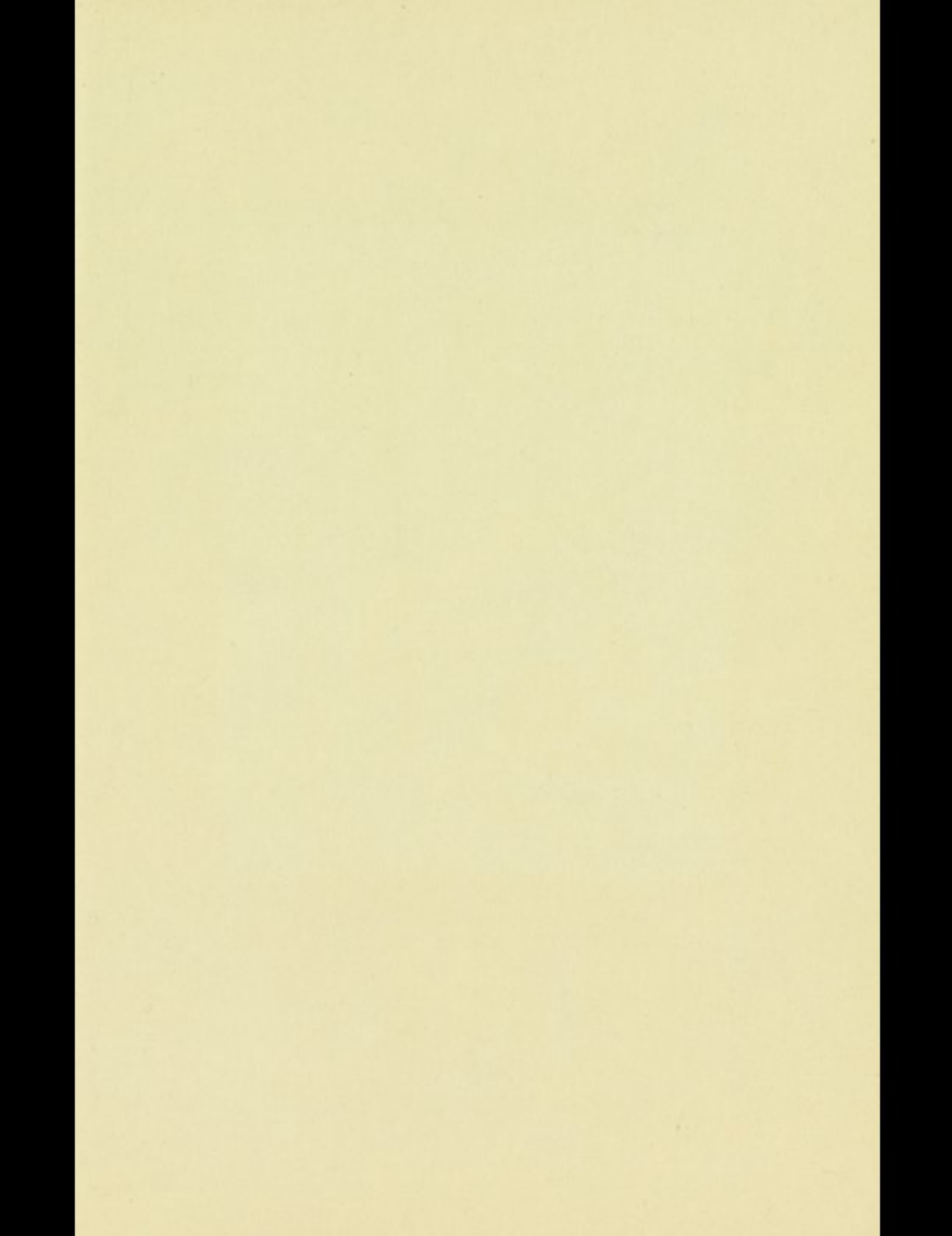




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY







وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

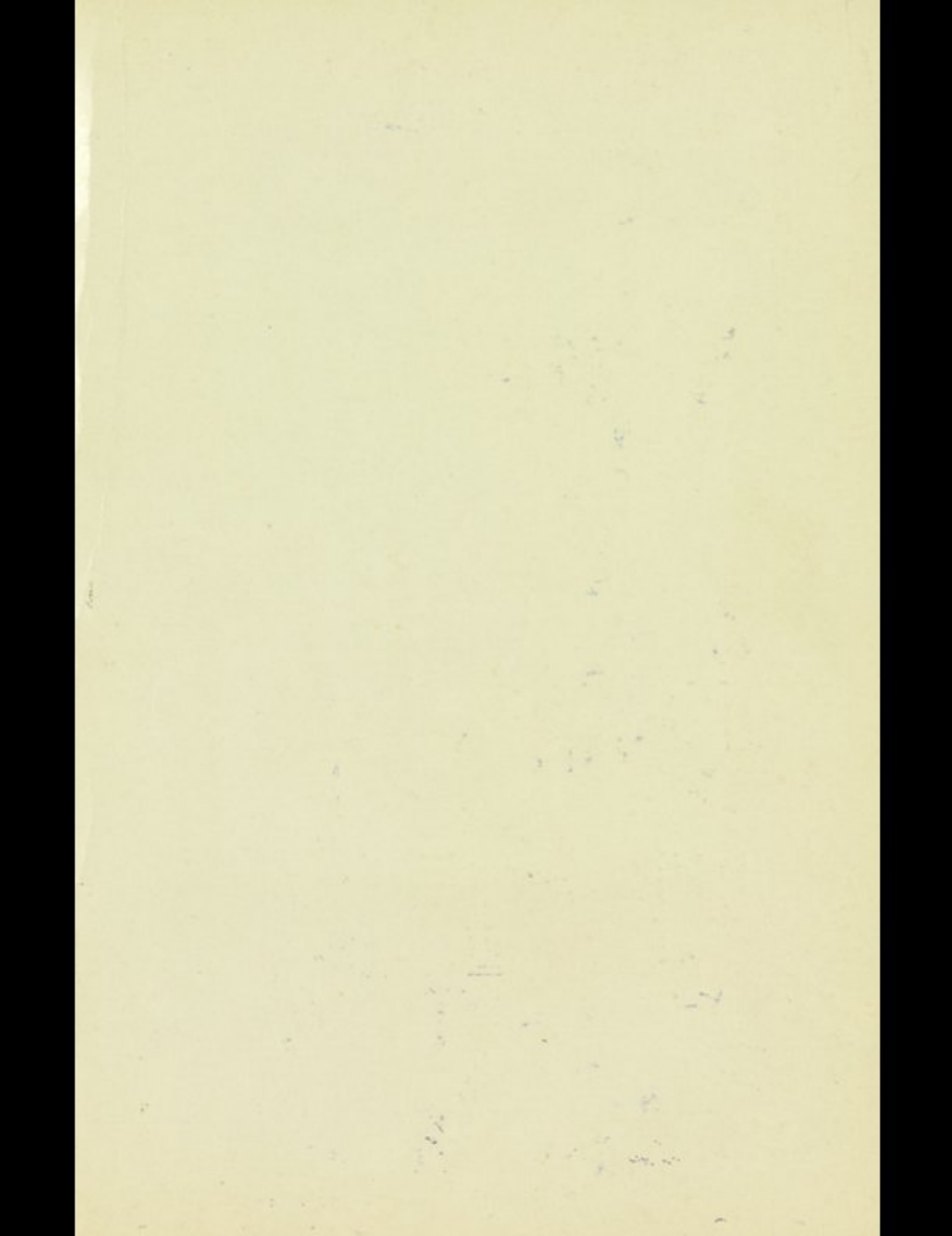
رومانيا والمشوق

ألفه الأدبي

السلسلة القصصية

« ٥ »





وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

وداعاً يا دمشق

الفة الأدبية

السلسلة القصصية رقم (٥)

نشر وتوزيع مكتبة اطلس
دمشق

مطبعة خالد بن الوليد
دمشق هاتف : ١٩٣٢٨

956.9

SY 27

5

Handwritten text, possibly a title or description, mostly illegible due to fading.

Handwritten text, possibly a title or description, mostly illegible due to fading.

الاهدء

الصبايا الصغيرات حفيداتي :

ريمه و مارية و زينب و نادية و رفيقاتهن

لهذه القمص و أكثر هواتك جرت في هذا
القطاع الصغيره و طنته العري الكبير ، الهديك
الليله و أنته من بنات الجيل القادم الذي يجدر به أنه
لا يتاس صور الماضي ، و معلقه القديسه ، وقد
ادشلت انه تأتي عليك عوامل التمدن الحديثه ،
و أشهد الله لنته من الحافزات بي على رسم هذه
الصور ذات الطابع الخاص ، و سرر القمص عندك .
و ذلك لأترك لك فتره فيك بعاصه ما يبره يليله
الحياء التي عاشتك جداً الله و ادل تنه من قبل ،
و سجدنه في ذلك كله شيئاً من التمه و السوى .

الهدء

١٩٦٧/٢/٥

[Faint, illegible handwriting, likely bleed-through from the reverse side of the page.]

الرقية المجرية

قالت لها جارتها تهديء روعها وتخفف عنها :
مالك تعظمين الأمور ؟ أهى المرة الاولى من نوعها ؟ ياطالما تزوج
الرجال على نساءهم ! . . . وتمسح أم صافي دموعها بكما وتقول :
لو سمعت هذا الخبر من غيرك لما صدقته ولقلت حكاية غدر
ومكر ! . . . أيعملها ممي أبو صافي بعد خمس وعشرين سنة ؟!
وتبتسم خدوج - جارتها - استهزاء وتقول :

المؤمنة بالرجال كحاملة الماء بالغربال ! .. اسمي منى ولا تضيي
الوقت ، وتعالى ممي لآخذك الى أم زكي عساها تعطيك رقية تستطيعين
بها ان تداركي الامر قبل وقوعه .
وتتبرم أم صافي وتقول بمرارة :
تقولين أن عرسه الليلة . . . فماذا تستطيع عمله أم زكي يبضع
ساعات ؟

فتمز خدوج رأسها اعجابا ، وتقول :

أم زكي ! هي أم العجائب ، ياما ابطلت زيجات بساعات معدودة ،
وياما جمعت بين ضدين ، وياما فرقت بين الفين . . ولكن هل معك ليرة
ذهبية ؟ فهي لا تقوم بعمل ما لم تقبض الثمن سلفاً ، وسعرها محدود !
ليرة ذهبية لكل عمل تقوم به .

وتتردد أم صافي قليلاً ثم تجرض بريقها وتقول :

معي ليرة ذهبية . . .

وتسرع الى ألبستها ، فترتديها على عجل ، ثم تفتح صندوقها، وتخرج

منها الليرة الذهبية وتشد عليها أصابعها بخنان . . .

إن لهذه الليرة بالذات تاريخاً حافلاً بالذكريات الحلوة عند أم
صافي ، وكانت قد آلت على نفسها ان تحتفظ بها للذكريات الحلوة ،
واليمن والبركة . فقد مرت عليها أيام عسر وضيق ولكنهم لم تفكر أبداً
ان تفرط بها . . . فكانت كلما رتبت صندوقها تخرج هذه الليرة من
مخبتها ، ثم تفتحها فاذا رأت ليرتها تهلت أساريرها ، وأشرف وجهها ، ثم
يشط بها الخيال ، وتطوح الذكرى الى خمس وعشرين سنة خلت ،
الى اليوم الذي دخلت فيه هذا البيت عروساً ، وكثيراً ما كانت
تحول عينها عن الليرة الى صحن الدار فتراها بعين الخيال كما رأتها في
ذلك اليوم بأبهى زينة ، توج بالمدعوات ، وقد تدلت من شجيرات
الليمون والنارنج التي تحف بالدار فوانيس مضاءة . وتذكر جيداً عندما
أطلت من باب الدهليز كيف ناولتها احدى قريباتها خميرة من عجيب على

ورقة تين خضراء ، وطلبت منها أن تلزقها على الجدار ، ولما استقرت
الخميرة على الجدار ابتسم أهلها ، وهنأ بعضهم بعضاً ، لأن هذا يدل على
أن ابنتهم ستستقر في بيت زوجها وستكون حياتها محفوفة بالسعادة
والهناء . وتذكر عندما دخلت صحن الدار كيف استقبلها فوج من
الصبايا كلهن من أهل العريس بزغرودة حلوة مازالت تذكر كلماتها
الى الآن :

حصنتك بياسين ،
يازهرة البساتين ،
ياورد وسوسن ،
على رؤوس السلاطين ،

ويرد عليهن فوج آخر من الصبايا بزغرودة أشد حماسة تبلغ
لعلتها عنان السماء :

لا أنت طويلة شامطة ،
ولا قصيرة هابطة ،
ويا حلوة سكرية ،
طبخناها البارحة ،

ثم تأتي أم العريس فتأخذ بيدها وتجلسها على سدة هيئت لها في
صدر الليوان . وراحت هي تفض طرفها ما أمكنها ، حتى بدت وكأنها
مغمضة العينين . لقد قيل لها : ان العروس الوقحة هي التي تحملق بالمدعوين .

ثم تذكر كيف راحت تسترق النظر الى الدار التي رأتها لأول
مرة ، وستأويها مدى العمر . . . فأحببتها . . . احبت اشجارها الوارفة ،
بحرمتها التي ترقص في وسطها نافورة ثرثرة ، ليوانها ذا القوس العالي ،
شجرة الليلك التي كأنها تزينت لحفلة العرس ففتحت ازهارها مرة
واحدة ، وتدلت الازهار عناقيد بنفسجية تداعب رؤوس المرات من
تحتها ، فترشق زهرة هنا ، وزهرة هناك ، الياسمين التي تسقت الشبايك
والأبواب كأنها تسترق اسرار المخادع ، الياسمين العراتلي الذي نشر
عطره فطنى على كل عطر فواح .

وتتنبه من شرودها عندما تقدم منها عشرون صبية من العذارى ،
هن نخبة هذا الجمع كن يحملن بأيديهن شموعاً مزر كشة مضاءة ، ثم
يأخذنها بينهن ، ويتحلقن حول هذه البحرة التي تراها امامها الآن ، ثم
يسرن متمهلات متمايلات وهن يغنين لها أغنية العروس الخالدة :

اسم الله ، اسم الله يا زينة ،

ياورد فبح في الجنينة ،

كانت بينهن كواسطة العقيد ، تزهو بمجالها الناضر وبشعرها
الأشقر الطويل الذي يكاد يمس ركبتها وقد زينته لها الماشطة بخيوط
من التيل المذهب ، وثرتة على كتفها ، ووضعت لها على رأسها غطاءً
طويلاً شفافاً من التول الابيض ثبتته على مفرقها باكليل من زهر
الليمون ، رمز الطهارة والبراءة .

وإذا هي تسمع ضجة وجلبة ، فتدرك ان العريس قد وصل ،
وتتناهى الى سمعها أهازيبج الرجال وهتافهم وهم يقولون :

نير وأقدر ،

وعادنا ،

وهيه ،

وتذكر كيف فسرت لها ذات مرة عجوز من أقربائها معنى
هذه الازوجة اذ قالت :

نير واقدر : يقولون للعريس : الزواج نير سنضعه في ، رقبتك
فان كنت رجلا حقا قدرت على حمله .

وعادنا : يقصدون بها أن عادنا نحن صحابك معشر العزاب ،
وأفرغ لبيتك وزوجك ، وان استطعت ذلك سنهتف لك قائلين :
هيه .

وتبتسم في خفر لهذه المعاني الحلوة . واذا زغاريد النساء
تعلو مرة ثانية ، وتنظر صوب الباب فتري رجلها لأول مرة وهو
يدخل من باب الدهليز يخف به أهله من كل جانب ، فتغض بصرها ما أمكنها ،
ويخفق قلبها وتقرب منها صبية من قريباتها توشوشها قائلة :

اياك ان تكلميه قبل ان يعطيك ثمن شعرك كما هي العادة .

فاذا صار امامها وجاءت الماشطة ووضعت يدها بيده شعرت
باضطراب شديد ، فكان صدرها يعلو ويهبط بسرعة عجيبة ، وما زالت

الى الآن تتساءل عن سبب هذا الاضطراب ، اكان الخوف ؟ ام الفرح ؟
ام الرهبة ؟ ام ماذا ؟ .

ثم تدخل معه هذا المخدع القائم على عيين الليوان ، ويفلق عليها
الباب ، فتقعد الى جانبه جامدة لا تتحرك كأنها صنم من حجر . وكان
هو يداعب سبحة في يده ، وتمر فترة صمت محرجة . . ثم يقترب منها
ويأخذ يدها بين يديه . ويقول لها برقة وعذوبة تلك الجملة التقليدية
التي كانت هي اول كلام يفتح به الزوج زوجته :

انا واياك على الدهر ؟ أم أنت والدهر علي ؟ ؟ وتذكر وصية
قريبتها فتشيع وجهها عنه دلالا ، دون أن ترد عليه .

فيقول : آه لقد تذكرت ... ثم يأخذ خصلة من شعرها
ويقبلها ويقول لها :

شعرك الذهبي شلة حرير . . ياروحي عليه ، لا يثمن الا
بالذهب . . ويمد يده الى جيبه فيخرج هذه الليرة ذاتها ، ويضعها في
يدها ، وتشد عليها اصابعها بحنان كما تشدها اليوم .

ومنذ تلك اللحظة آلت على نفسها ان تحتفظ بها للذكرى الحلوة ،
ولليمن والبركة . ثم ترفع رأسها فتلتقي نظراتها لأول مرة ، وتقول له
مخلصة صادقة :

انا واياك على الدهر .

وتتذكر أم صافي كم كانت بارة بعهدتها .

كانت معه على الدهر خمسا وعشرين سنة كاملة كأحسن ماتكون
الزوجة لزوجها حبا ووفاء ورعاية . انجبت منه تسعة اولاد ، اربعة
شباب مثل النخل ، خمس صبايا ، كل صبوية مثل البدر . يا ويله ! هل
نسي ذلك كله ؟!!..

يا للرجال ما أقبح غدرهم ؛ واقل اخلاصهم ... منذ مات عمه
بكري ، وورث عنه الطاحونة والبستان تغيرت كل احواله . اصبح
دائم الشرود والعبوس ، كثير النزق ، يثور لأتفه الامور ، وينتحل
أوهى الأعدار ليتغيب عن البيت . كان إذن بيت أمراً . . . ما أغباها !
. . كانت ثقها به عمياء ، فلم تساورها الشكوك والريب حتى وقعت
الواقعة أو كادت ، وهي في غفلة من أمرها . . .

وتسلم قيادها الى جارتها خدوج التي تأخذها الى أم زكي ، وهناك
تعطيها الليرة العريضة الغالية ، وتلقى عنها الرقية وتحفظها . .
وتوصيها ام زكي ان تصعد بمفردها بعد صلاة العشاء الى سطح
بيتها فتطوف به سبعة أشواط وهي تردد الرقية سبع مرات .

وتعود الى بيتها وهي في شغل شاغل عما يحيط بها . لم تع شيئاً
سوى انها فرطت بالليرة الغالية ذات التاريخ المجهد . . . في سبيل
الرقية التي مستحول دون زواج أبي صافي . . وينكر اولادها وجومها
واصفرارها ، ولكنها لم تشف لهم غليلاً ، وآثرت الصمت حتى ترى
النتيجة .

كانت كلها آذاناً صاغية ، فلما سمعت المأذون يختم آذان العشاء ،
غافلت أولادها وصعدت الى السطح .

كانت ليلة ممطرة ، حالكه السواد ، شديدة الوحشة ، فاستولى
عليها خوف مفاجيء لم تكن تنتظره أبداً ، وشعرت برهبة . . . ولكنها
جمعت كل شجاعتها وابتدأت بالشوط الأول وهي تردد كما علمتها أم زكي :
بعثت لك هاني وماني وكبير الجن القهرماني .

طربوشه وردي ، وبابوجه جلدي

ليأتي بك الآن ، الآن

بأي حال ، بأي حال

من أي مكان ، من أي مكان

على عجل ، عجل ، عجل .

فاذا زوبعة شديدة تجتاح الجو ، فتلتمع البروق هنا وهناك ،
وتزجر الرعود ، وينهمر المطر جبلاً موصولاً ، وتجمد أم صافي
في مكانها كأنها سمحت تسميرا . وراحت تراقص امام ناظريها أشباح
من الجن بهيات مفزعة ذات قرون وأذنان ، وتتناهي الى سمعها من بعيد
أصوات موحشة منكرة كأنها عواء كلاب مسعورة ، أونعيق بوم . . .
ويشتد وجيف قلبها حتى تشعر كأنه سيقف عن الخفقان ،
وراحت تسائل نفسها :

الا يصيب أبا صافي سوء من كبير الجن القهرماني ؟؟ ومن هاني
وماني اللذين لاشك أنهما من أخبث بني الجن وأشدّها مكرأ بيني آدم !..

أبو صافي . . . زوجها الحبيب . . . أبو اولادها التسعة ،
زين شباب الحارة رغم سنه الخمس والأربعين ، ترمي به الى التهلكة
بيدها ، فيمسه عارض من الجن ، وتخسره الى الأبد ؟ !

لا ، لا ، أعوذ بالله من شر ما أقدمت عليه . . . ليعش أبو صافي
سليماً معافى ، ولو كان متزوجاً من غيرها ، وعوضها على الله بالليرة الغالية ،
ولتدع أمرها الى الله .

وتبذل جهداً حتى تستطيع تحريك قدميها ، ثم تروح تتلمس
طريقها في الظلام بخطى مضطربة مرتبكة ، فتعث وتزل قدمها وتهوي
من السطح إلى صحن الدار ! . . . وتلقاها شجرة الليلك .

كانت الشجرة وفيه الى تلك التي تعهدتها بالسقي والتشذيب خمساً
وعشرين سنة كاملة ، فتكسر أغصانها تحتها ، وتسلمها الى الأرض برفق
وحنان ما استطاعت الى ذلك سبيلاً .

لم تمت أم صافي ، رغم ان الهوة كانت سحيقة المدى ، بل أصيبت
برضوص وخدوش يسيرة . ويهب اولادها جميعهم مذعورين على صوت
استغاثتها ، وفي طليعتهم ابنها البكر صافي الذي سارع ليحملها على مساعديه
القويين ويضعها في فراشها ، ويسألها بلهفة :

ماذا دهاك ؟ أي عمل لك على السطح في مثل هذه الساعة من الليل ؟
وتخجل ان تبوح لهم بسر الرقية فتكتفي بأن تقول باقتضاب :
أبوكم تزوج . . . الليلة عرسه ! .

وتستدير العيون دهشة ، ويسود الجميع وجوم ومسكون كالسكون
الذي يسبق العاصفة ، ثم تهب العاصفة ، ويشد اللفظ ، ويتكلمون
كلهم معاً فلم يفهم مما يقولون شيء . ثم يسترعي انتباههم أخوهم الكبير
صافي ، الذي انفتل يرتدي ملابسه بسرعة وهو يرغي ويزبد ، ويبربر
بكلام لا يبين ، وتقول له أخته الكبرى :

الى أين ، وأمك في مثل هذه الحالة ؟ .

ويجيبها بحدة :

اليه ، لآتيها به .

وتتمالك الأم نفسها وتقول :

تأتيني به ؟ ولم ؟ وهل تعرف أين هو الآن ؟

ويرد عليها :

انا أعرف أدبر مشغلي . . . سأتيك به الآن ، من أي مكان بأي

حال ، من الشرق ، من الغرب ، من تحت الأرض ، من السماء السابعة .

وتفغر الأم فمها دهشة وهي تتساءل في نفسها :

اهذا هو اذن كبير الجن القهرماني ؟ كان قائماً بين سمعها

وبصرها ، ولم تلجأ اليه ، بل لجأت الى أم زكي حيث فرطت بالليرة

الغالية . . . ثم تقول له :

لا ، لا ، يا بني طول بالك . . . الله يرضى عليك ، ملائكة

السماء ترضى عليك ، أبوك رجل عبيد ، لا تصطدم معه ، شكوته
لله . لا تعمل لنا فضيحة ، لا تصيرنا سيرة بقم الناس . . .

ويرد عليها بنزق :

صرنا سيرة وزيادة ! ! . ، ماذا تريدن اذن ؟ هو يتزوج ،
وأنت تنتحرين ، ونحن تتفرج عليكما ؟ ! . ثم يصفق الباب خلفه
وينطلق .

ويشعر الجميع بارتياح عميق لكلامه ، كأنه يعبر عما في صدورهم
جميعاً ، لاسيما الأم ، فقد أحست بالاطمئنان يتسرب الى نفسها بعد أن
رأت ابنها صافي شاباً قوياً ينتصر لها بهذه الحماسة ، وهذا الاندفاع .
وما هي الا برهة قليلة من الزمن حتى يعود صافي ومعه أبوه .
ما عرف أبو صافي الذل والمسكنة طول حياته كما عرفها في تلك
الساعة أمام زوجته التي تظاهرت بالاغماء ، وأمام أولاده التسعة الذين
كانوا ينشجون حول فراش أمهم .

فكان يتمم بانكسار ذليل ، منكس الرأس :

لاحول ولا قوة الا بالله ، لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ،
النصيب ، نصيب ، الذي انكتب على الجبين لازم تشوفه العين .
إننا لله وإنا اليه راجعون .

ولكن هذه الكلمات — على قدسيتها وبلاغتها — ما كانت اترد
عنه النظرات العاتبة . والكلمات الواخزة .

ويجد أن خير ما يخرج من هذا المأزق هو ان يأتي بالطبيب
عساه يحتمي به ريثما تهدأ النفوس قليلاً .

ولما كان اليوم الثاني وقد شاع في الحارة كلها خبر ما وقع لأم
صافي مع زوجها ، راح جيرانها ، وصاحباتها يقدون لعيادتها والاطمئنان
عليها . ولكن أسارىها لم تهمل وتفزع الا لجارتها خدوج التي انحنت
عليها ووشوشتها قائلة :

هاتي البشارة . . . رجعت المياه الى مجاريها ، وبطل زواج أبي

صافي .

ألم أقل لك ان أم زكي أم العجايب ، ورقيتها المجربة لا تخطيء

أبداً .

الحق الكبير

ما كنت احسب ان تلك الذكرى المؤلمة ستظل قابعة في أعماق نفسي دائماً أبداً ، حية لا تموت معها بعد بها العهد . . . يثيرها مرأى كوب من الحليب ، مجرد كوب صغير من الغذاء الذي عافته نفسي منذ ما اصبح مرآه يبعث كوامن الاسبى في قلبي .

كنت كلما وقع نظري عليه تمثل في خاطري أبو حامد بائع الحليب الجوال ، بقامته القميئة ، المائلة قليلاً على وعاء الحليب الكبير المعلق على كتفه ، وسرواله الازرق ، وقد شد عليه زناراً أحمر ، وارتدى فوقه ميتاناً مخططاً بالابيض والاسود ، وعينيه الصغيرتين اللامعتين تحت حاجبيه الكثيفين ، وصورته الخنون رهو ينادي بنغمة مطوطة : حليب ، حليب .

كان الصوت يتناهى الي كل يوم وأنا قابع في فراشي تحت اللحاف فيصلني خافتاً عميقاً عندما يكون أبو حامد قد وصل الى أول حارتنا الطويلة المنحدرة من ذيل جبل قاسيون حتى حي الصالحية . ثم يبدأ الصوت يعلو وبعلو ، وعندما يصل أبو حامد أمام بيتنا تماماً كانت

ساعتنا العجوز المثبتة على حائط الليوان ، والتي وعت جيلين أو أكثر
من أسرتنا تبدأ دقائقها الرتيبة ، فندق ست دقائق متتابعات وكأنها
والحلاب على ميعاد لا يتخلفان عنه أبداً . فأهب عندئذ من فراشي
بدفعني نشاط سن العاشرة الذي كنت فيه ، واهبط الدرج راكضاً فأثير
ضجة قوية توقظ أهل البيت جميعاً ، ثم اتناول ابريق الحليب من المطبخ
لأملأه من الحلاب . كانت هذه هي الوظيفة التي اناطني بها
أمي كل يوم .

وعندما أفتح الباب كان يطالمني وجه أبي حامد بابتسامته
العريضة التي تصفي على وجهه طيبة وحناناً . ثم يكيل لي ثلاث كيلات
من الحليب .

كانت عيناى تستقران بكثير من الفضول على يده الكتماء التي
تقلصت أصابعها وتجمعت في راحة الكف وتنا الإبهام كأنه قطعة من
خشب يابسة . كان يخطر لي أحياناً ان أسأله عن سبب طأهته تلك ،
ولكن الخجل كان يمني عن الكلام .

ثم يتحول أبو حامد الى باب جارتنا ويصرخ بصوت حنون :
حليب ، وينفتح الباب فوراً ، وتبرز منه صببة صغيرة في مثل عمري ،
هي سنية بنت جيراننا فتحيني بابتسامة مشرقة كصباح ربيعي فأشعر
بأن الدنيا تضحك لي بأسرها ، واطل واقفاً اتلى من وجهها الصبوح
حتى يملأ لها أبو حامد الوعاء الذي بيدها ، فاذا اغلقت بابها انكفأت الى
داخل البيت وأنا ادم—دم اغنية ، وارشف رشفات صغيرة من
السائل اللذيذ .

وهكذا كان يبدأ نهاري كل يوم بداية طيبة .

فاذا تحلقنا حول المائدة كنت أسمع أمي تقول وهي تصب لنا الحليب : ابو حامد حلاب ممتاز . . . الله يبارك له . . ما يغش الحليب أبداً . انه صاحب ذمة ودين . ويرد أبي قائلاً :

مسكين انه رجل طيب ، فقير وأبو عيال ، يذهب كل يوم قبل شروق الشمس ماشياً الى الغوطة ليلتاع حليبه من ثدي البقر مباشرة . فأشعر انا نحو هذا الرجل الذي ألفتة كثيراً بشيء من العطف والشفقة . ولكن شعوري هذا ما لبث ان تحول ذات يوم الى اكبار واعجاب ، يوم رأيت أبي يهب من فراشه كلما سمع صوت الحلاب ويخرج معي لمقابلته . كان يفعل ذلك ليستطلع منه أخبار الثوار في الغوطة . كان يسأله أسئلة هامة ومحسب اني لا أفقه مما يقولان شيئاً . كان يقول له مثلاً :

كيف حال الجماعة اليوم ؟ ؟

فيجيب ابو حامد وهو يكيّل الحليب بصوت خافت ولهجة كلها ثقة :

بخير والحمد لله . . المعنويات طيبة . . ثم يهمس مبتسماً :
في المعركة التي جرت البارحة في قلب الغوطة استشهد ثلاثة من
أولاد الميدان ، وخمسة من اولاد الشاغور ، وسبعة من الغوطة . . أنا
اعرفهم جميعاً . . كل شاب والله مثل النخلة ! . . ولكنهم قتلوا

كثيراً . كثيراً من الفرنسيين . . . وردوم على أعقابهم . . . هؤلاء
الشهداء يا أفندي هم شباب اهل الجنة . يألتي اصبغ واحداً منهم ! . .
ويبدو الأسف على محياه ، ثم يمد يده الكتعاء ويقول :

هذه اليد يا أفندي احترقت كبدي ، لو كانت سليمة قادرة على
استعمال السلاح كنت والله تركت العيال في رعاية الله والتحقت بالثورة
لأجاهد في سبيل الحق والوطن .
ثم يردف قائلاً بألم شديد :

ولكن الله لم يشأ ان يمنحني هذه السعادة ! . . ثم يتحول الى

باب جارنا ويصرخ : حليب . . حليب . .

سمعته ذات يوم يقول لأبي وهو يكيل الحليب كعادته :

هجم البرد يا أفندي . . واكثر الثوار يا حصرة ! ليس لديهم
عباءات . . والنوم في البرية بلا عباة امر صعب . كان الله في عونهم .
ويهز ابي رأسه وهو يتمم بكلمات مبهمه ثم يدخل البيت ويتحدث مع
أمي طويلاً بصوت خافت ، ويبدو على امي انها كانت مهتمه بالحديث
لهتما شديداً واشعر برغبة ملحة لأفهم ما يدور بينها من حديث . .
في المساء اخذت استرق السمع من خلف الباب فسمعت أمي تقول :

طفت اليوم بجميع بيوت حارتنا . فما تخلف بيت واحد عن الدفع
الأغنياء والفقراء على السواء . فاستنمات ان اجمع ثمن خمسين عباة .
اتدري ان ثمن العباة الواحدة سبع ذهبات ؟ فيقول : ابي اعرف ذلك ،

الأفضل ان تشتري انت العباءات . حاولي ان تشتري من كل دكان
عباءة أو اثنتين فقط ، كي لا تلفتي اليك الأنظار . فالفرنسيون يبشون
الجواميس والخونة في كل مكان . ثم يقول :

اتدرين ان ابا حامد الحلاب قد تكفل بإيصال العباءات الى الثوار
معرضاً نفسه للخطر .

فترد امي :

انه صاحب مروءة ونخوة . ويقول ابي :

سأأخذ معه الى الغوطة كل يوم عباءة واحدة يسلمها للثوار حتى
لا يشير أي شبهة .

ومنذ ذلك اليوم اخذ ابو حامد يمر على بيتنا كل مساء ثم يخرج منه
وعلى منكبيه عباءة جديدة ثم يعود في الصباح وهو عار منها ليأخذ
غيرها . وهكذا الى ان اختفت ذات يوم كومة العباءات التي كانت
تحتي تحت سرير امي . .

وفي صباح كئيب عندما دقت ساعتنا العجوز دقاتها الست لم اسمع
صوت الحلاب الحنون ، الذي كان كأنه يدعوني لمغادرة الفراش كل
يوم . بقيت يومها قابلاً في فراشي أشعر بشيء من الغم والانقباض .
حتى سمعت صوت أمي تناديني فقمت متكاسلاً وتناولت فطوري دون
كوب الحليب المفضل لدي . وتساءلت امي قائلة :

ماذا جرى لأبي حامد يا ترى ؟ . ما كان ليتخلف عن المحيء ابداً .

فيرد ابي والقلق باد على وجهه :

من يدري لعله مريض .

عندما خرجت من المدرسة في اصيل ذلك اليوم بالذات رأيت
بعض التلاميذ قد تجمعوا في منعطف قريب من المدرسة و كأنهم
يتحدثون بأمر خطير . قال كبيرهم :

تعالوا يا اولاد ننزل على ساحة المرجة لتفرج . يقولون ان
الفرنسيين يعرضون فيها جثث الثوار الذين قتلوهم في معركة البارحة .
ويبدو الجزع على وجوه الصبية ويقول بعضهم :
لا تصدقوا ذلك ابدأ . . الفرنسيون يكذبون كثيراً .
ويقول الكبير :

تعالوا نر اذن . ويسير امامهم .. وانخرط بينهم مأخوذاً ذاهلاً .
كنت ألاحظ الناس في ذلك اليوم يسرون في الطرقات عجلين منكسي
الرؤوس ، يبدو الوجوم والانتقباض على وجوههم ، وكأن رماداً
قد رش عليها .

لما وصلنا المرجة كانت خالية من المارة تماماً على غير عاداتها ،
كأن الناس كان يتحاشون المرور بها ، فيحولون عنها طريقهم فكأية
بالفرنسيين . ولما صرنا في وسطها تماماً رأينا منظرأ مخيفاً وقفنا امامه
جامدين . لقد صفت حول النصب التذكاري القائم في وسط الساحة
جثث بشعة مشوهة ، ممزقة الثياب ، ملطخة بالوحول والدماء . و كان

بضعة جنود من الفرنسيين يجرسون الجثث ، و كان ضابطهم ينظر اليها
ويشير بيده الى الجثث وهو يضحك بشهامة ويقول برطانة اعجمية :
ثوار . . . ثوار . . .

لقد بدرت مني صيحة جزع عندما رأيت جثة أبي حامد الحلاب
بين الجثث ! . . . كانت مسحنته قد تغيرت كثيراً . ولكنني عرفتته من
ألبسته ، ومن يده الكتعاء وقد تمددت الى جانبه و كأنها برهان قاطع
يثبت أن صاحبها لم يشترك في معركة لانه عاجز عن حمل السلاح . . .
وراح الصبية يتراجعون بصمت رهيب . و كأنهم شعروا بفداحة
غلطتهم . كان يجب عليهم ألا يأتوا نكاية بالفرنسيين كما يفعل الكبار .
ولما ابتعدوا قليلا قال كبيرهم بصوت مرتجف وقد بدا عليه الخزي
والندم كأنه هو المسؤول عن مجيئهم :

صحيح ان الفرنسيين كذابون . ليس بين هؤلاء القتلى ثائر
واحد ، أنا اعرف الثوار ذهبت مرة مع أبي الى الغوطة ورأيتهم ، انهم
اقوياء ، اشداء . اما هؤلاء القتلى الذين رأيناهم فليس بينهم والله ثائر
واحد ، انهم من الفلاحين المساكين ، ومن العجزة ، قتلوهم غـدرا
وجاءوا بجثثهم ليرهبونا .

خسثوا لن زهبهم ابدا . . . سنصبح نحن ايضا ثوارا عندما نكبر .
فهز الصبية رؤوسهم هزات متتابعة تدل على تصميم و ارادة ، دون أن
ينطقوا بكلمة . كانت وجوههم مصفرة ، كالحلـة كأنها مكهربة ، و عيونهم

متسعة تحملق بكل شيء . وافواههم مفتوحة . يدل لهاثهم على اضطراب
قلوبهم الصغيرة .

راحوا يسرون بسرعة واقدامهم الصغيرة تضرب الارض ضربات
قوية مضطربة ، كأنهم رجال حاقدون . . واحببت انا أن اتكلم لأدعم
الكبير فأقول لهم :

اني رأيت جثة ابي حامد الحلاب بين الجثث ، وهو ليس بشائر كما
تعلمون . ولكن لساني لم يسعفني بالنطق كأنه قد يبس في حلقي . كنت
اشعر بضيق شديد يكاد يكتم انفاسي . اردت ان ابكي بصوت عال
لأنفس عن صدري ، ولكن الدموع التي طفرت الى عيني انجبت في
محجري وأبت ان تسيل كأنها قد تجمعت كلها في حلقي حتى
كاد ينفجر .

اسرعت الى البيت ، رأيت امي جالسة على حافة الليوان تبدو
حزينة ، شاردة الذهن ، ترقأ من حين لآخر دموعا تنهمر من عينيها
بسخاء وهي صامتة . فوقفت امامها مراتها وقلبي يدق دقات عنيفة ،
وسألتها بلهفة : أين ابي . قالت وهي تحاول تهدئة صوتها
المضطرب لتطمئني :

ابوك مسافر الى الضيعة ، وسيعود بعد أيام قليلة . اقتربت منها
وحدقت الى عينيها بوقاحة ثم قلت لها :
لماذا تخفين عني الحقيقة ؟؟ ..

انتي أعرف انه التحق بالثورة ، وتركنا في رعاية الله كما كان
يتمنى ان يفعل ابو حامد قبل أن يقتله الفرنسيون ..

فضمتني الى صدرها بعنف وقالت وهي تبتسم :
يا خبيث انك تتكلم مثل الكبار تماما . من أين عرفت كل ذلك؟
أيك ان تذكر امام أي شخص كان أن اباك التحق بالثورة . لو دري
الفرنسيون لهدموا بيتنا . قلت : أيهدمونه ونحن فيه !!؟

قالت: يعملونها يا بني ! لقد هدموا كثيرا من الدور على رؤوس
سكانها . ورحت التصق في صدرها واوصالي ترتعد من الخوف .. كنت
أشعر في تلك اللحظة أنني كبرت كثيراً ، وعرفت أشياء كثيرة . ألم أر
الموت في أبشع مظاهره لأول مرة في حياتي ؟ ألم أعرف اليوم الكثير
عن فظاعة الفرنسيين ؟؟

في تلك الليلة نمت نوما قلقا مضطربا ، كانت تقطعه أحلام مخيفة
رهيبة . كنت أحيانا ارى جثة ابي ملطخة بالوحول والدماء ملقاة في
ساحة المرجة الى جانب جثة الحلاب ، فأصحو على صراخي المزعج
فأرى أمي واقفة أمام سريري مضطربة تهدهدني ، وتسكن من روعي ،
حتى أهدأ قليلا . فاذا عدت الى اغفائة بعد جهد رأيت بيتنا ينهار تحت
قصف القنابل وانا وامي نتراكض بين الدخان والغبار . ثم تعاودني
رؤية الجثث ولكنها كانت هذه المرة لجنود فرنسيين اعرف بينهم
ضابطهم اللثيم الذي كان يضحك بوقاحة ويشير بيده الى الجثث ، فأشعر
بشيء من ارتياح الشهامة .

عندما بزغ الفجر كانت اعصابي قد تعبت تماما فاستسلمت لنوم عميق ثم صحوت على صوت ناعم ندي ينادي في أعلى الحارة :
حليب .. حليب .. كان للصوت نفس النغمة المطوطة والجرس الحنون ، ولكنه كان ينتهي بأنة مرتجفة حزينة : عرفت الصوت حالا ، كان صوت صديقي حامد الابن الاكبر للحلاب الشهيد !.. فعضضت على شفطي من الغيظ ورحت اتصور رفيقي المسكين المتفوق في دراسته علينا جميعا كيف يتحتم عليه الآن ان يترك مدرسته قبل الاوان ويودع آماله الحلوة ليعيل أسرته الكبيرة !. فيضطر ان يخلع عن كتفه محفظة الكتب ليحل محلها وعاء الحليب الكبير الذي ربما لازمه طول حياته كما لازم اياه من قبل !..

وتنهمر من عيني دمعتان ساختان ، منذ ذلك الحين راح ينمو في اعماقي حقد كبير مرير .

وداعاً يا دمشق

سعدى بك خفيف الرأس - على - صد تعبير اصداقائه - اذا
ما كرع كأسه الثالثة انقلبت رزاقته خفة ، وتحول صمته الطويل ثرثرة
قد لا تنتهي الا بانتهاء الجلسة . ولما كان يدرك عيبه هذا ، فهو يؤثر
اذا ما أراد ان يذفن همومه في كوؤوسه ، ان يشرب مع اخلص خلانته ،
حتى اذا دب دبيها الى ممكن الاسرار كان في مأمن من الافشاء .

كانت الجلسة هذه المرة على شرفة منزله المطلة من سفح قاسيون
على بساين الشام وغوطتها . وكان جليسه صديقاً قديماً له لا يتورع من
ان يبثه شكواه ، او ان يبوح له بدخيلة نفسه ، لاسيما وهو من الصنف
الذي يحسن الاصغاء مها طال الحديث .

ويجلس الصديقان يشربان ويتسامران ، فالأمسية ممتعة ، والهواء
دافئ معطر ، والقمر بدر ، والمائدة حافلة بأكلات شامية شبيهة . ولما
استقرت الكأس الثانية في جوف سعدى بك ، التففت فجأة الى صديقه
وسأله جاداً :

- ألا تعتقد معي يا فؤاد ، ان في الهرب أحياناً شجاعة؟

قال فؤاد :

- قد يكون ذلك صحيحاً ، وقد قال الناس قديماً :

الهرب ثلثا الشجاعة .

قال سعدي بك :

- ولكن في اعتقادي ان الهرب يكون احياناً شجاعة كاملة ، بل
اكثر من شجاعة ، سمه اقداماً ، توضيحية ان شئت .

لقد هربت مرتين . . . وكنت في هربي كما اعتقد اشجع مني
في أي حين آخر .

ويصمت قليلاً وهو يفكر ويملاً كأساً . ولم يسأله صديقه ان
يتم حديثه خشية ان يكون كمن يود ان يستطلع امر مالا يعنيه . غير
ان سعدي بك مالبت ان عاد الى ما انقطع من حديثه فقال بصوت
هاديء عميق :

كان ذلك منذ اكثر من عشرين سنة ، يوم كنت في الثامنة
عشرة من عمري نسكن حي العمارة . وكانت دارنا تقع الى جانب دار
حليم باشا اكبر وجهاء الحي آنذاك . اتصدق اني مها مسكنت من الدور
مازلت الى الآن احد دورها الشامية القديمة ، واحن اليها ، وافضلها على
غيرها . الا ترى معي أن في طراز بناؤها القديم شيئاً من الديموقراطية ..
انها تبدو على الاقل متشابهة لايشمخ كبيرها على صغيرها ، جدرانها
تسند بعضها بعضاً ، ومياهها مشتركة ومكشوفة ، وسكانها دائماً أمناء
على طهارة المياه . وسطوحها متصلة ببعضها . وشبابيكها المتقابلة المطلة
على الازقة الضيقة تكاد تتعانق في ود ، توحي اليك دائماً انها تضم

اناساً متحايين متآلفين ، يشد بعضهم ازر بعض . ولا يبدو لنا الفارق
الا اذا ولجنا الدهليز المعتم ، وتخطينا الدار الاولى التي كنا نسميها (البراني)
الى الدار الثانية (الجواني) حيث تبدو لنا عظمة الدار في سعة فسحتها ،
وزخرفة ليوانها ذي القوس العالي ، وأناقسة بمرتها الرخامية ذات
النافورة الدفاقة ، كذلك كانت دار جارنا حلیم باشا كبر دار في
الحلي . وكان البراني في دار الباشا يضم كل مساء وجهاء الحارة ، وكان
مكان ابي يأتي دائما الى يمين الباشا ، فهو جاره ، وابن حارته ، وصديقه
القديم . وكان ابي ضابطاً متقاعدأ ، قد خاض حروباً كثيرة ، وعنده
رصيد من الحوادث لا ينضب ابداً . كان يتحدث الى حلیم باشا وضيوفه
بعنجهية عسكرية عن بطولات لم تقم ابداً الا في خياله الخصب ..
وكانوا يصغون اليه مأخوذین بحديثه وهم يحتسون القهوة التي يدور بها
عليهم ابو نعيم و كيل الباشا .

كنت كثيراً ما احضر تلك الجلسات مع ابي . واتخير مكاني دائماً
مقابل الباب المؤدي الى الدار الجوانية عساي المح سنية ابنة الباشا . ..
فكثيراً ما كانت تغافل الخدم وتأتي من الدار الجوانية وتشق الباب
قليلاً الذي كنت اجلس قبالة لتخالسني النظر ، او تشير الي اشارة
تسكرفي بها طول الليل . . .

كم كنت اعشق سنية ؟ . . . كنت انتظر كل صباح العربة
التي تقلها من البيت الى مدرسة الراهبات في حي باب توما . كنا نتبادل

النظرات والابتسامات ، كان لصوت حوافر الخيل المطهمة التي تجر عربة
سنية على بلاط الزقاق وقع الموسيقى على سمعي . كنت اتلصق في
الطريق حتى تمر العربية فلا أصل الى مدرستي - مكتب عنبر - في
أكثر الأحيان الا متأخراً فيفرض علي قصاص قاس كنت اتقبله راضياً
في سبيل سنية .

ولما بلغت سنية الرابعة عشرة منعها ذوها من الذهاب الى
المدرسة على جري العادة في ذلك العصر كما تعلم . وأصبحت لا تخرج
من البيت الا بصحبة أمها أو عمتها ، ملتفة بملاءة سوداء . ولم أعد
أراها الا لماما . ولكن العشاق بارعون دوماً بابتكار الوسائل التي
تصلهم ببعضهم ، مهما اشتدت المراقبة عليهم ، كانت شبايك دارينا ذات
الأخصاص الصغيرة لا تبعد عن بعضها الا قليلا . فكنا نغامر حين يشتد
بنا الشوق ، فأضع على رأسي غطاءً لأبدو كامرأة وأقف خلف الشباك
ونشير الى بعضنا ، او نتحدث بكلمات مبهمه لا يدرك معناها غيرنا ، وربما
كانت هناك عشرات العيون ترقبنا من شبايك الجيران المقابلة لنا . أما
الساقية التي كانت تنحدر من دار الباشا لتمر بدارنا فيأما حملت لي
رسائل سنية . كنت اقف في الساعة التي تحددها لي أراقب الساقية ،
وألتقط أي شيء طاف عليها . . . باذئجاجة محفورة قد أحكم سدها
بعد ان حشرت فيها الرسالة ، او قارورة ، او علبة صغيرة . كل شيء

له قدرة على العوم ، وعلى عدم تسرب الماء الى داخله كان قادراً لأن
يحمل لي رسالة منها .

وتموت في حارتنا جارة لنا عجوز ، هي زوج احد الوجهاء ..
ويصبح حتماً على رجال الحارة بما فيهم الباشا ان يذهبوا ثلاث ليال
متواليات فيما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء الى دار المتوفاة ليتقبلوا
التعازي مع اهلها . فأهل الحارة الواحدة كما تعلم كانوا و كأنهم ابناء
اسرة واحدة .

وتحمل الي " الساقية رسالة من سنية تقول فيها :

سأنتظرك بعد المغرب في البراني . لا تخف لن يكون في البيت
احد غيري ، لأنهم سيذهبون جميعا لتعزية جارنا .
آه لن انسى ابدأ وقفنا تلك تحت الياasmine ..!

اشعة القمر تغمرنا والظلال تتراقص من حولنا ، والنافورة تغني
لنا ، والياasmine تداعبنا قهرهر زهراتها علينا ، ويستقر بعضها فوق
شعر سنية الفاحم نجوما ناصعة البياض . وسنية ترتدي ثوبا من حرير
ازرق له حفيف ناعم ، تهف منها رائحة عطر البنفسج الذي كانت تفضله
على كل عطر . والق غريب يشع من عينيها السوداوين ، ويدها الطرية
الناعمة تضطرب في يدي . قلبي يخفق ، وكياني يرتعش ، ونشوة تغمرني
ما عرفت اروع منها في حياتي ... طوقت سنية بذراعي ، ورحت اشد
جسمها اللدن الى صدري فأسمع خفقات قلبها .. قلت لها :

ليت لنا اجنحة ...

قالت :

والى أين تريد أن تطير بها ؟؟

قلت :

الى القمر ...

قالت :

ما أروع ذلك !.. ولكن الا تشعر معي كأننا نطير الآن ؟..
وكأننا قد اقتربنا من القمر ؟..

وقبل أن ارد عليها نسمع حركة صغيرة ما أدري مأتاها ، قد
تكون من قطعة او نحوها ، جعلتنا في مثل لمح البصر نفترق مذعورين
ونحن في اوج نشوتنا فيهرع كل منا في درب معاكس !.

وكانت هذه آخر مرة رأيت فيها سنية !..

بعد أيام قلائل اذ الساقية تحمل الي رسالة منها تقول فيها أن
يجب علي الاسراع في خطبتها قبل أن يعطي ابوها كلمته لأحد الوجهاء
الذي جاء البارحة يخطبها لابنه .

وهرعت الي امي .. وبحت لها بسري ، ورجوتها أن تعرض
الامر على ابي . كنت اكلمها وقلبي يرتجف ، واشعر بخوف ما عرفت له
مثيلا ، وكأن له مخالب تنغرز في قلبي وئيدا وئيدا .. ويزداد خوفي

عندما أرى تجهم وجه أمي . . وكأنها شعرت بما أقاسي من لوعة وارتباك ،
فراحت توأسييني وتقول لي :

اخشى يا بني ان يرفضوا مصاهرتنا ؛ فنحن لسنا في مثل
مقامهم وغناهم .

ويدخل علينا ابي فجأة ، فأتواري خجلا منه ، وتحكي له امي
ما كان يدور بيننا . ويعود الي شيء من امل باهت عندما المس تحمسه
للقضية فهو لا يرى نفسه اقل شأنا من حلیم باشا . قد اكسبته تربيته
المسكرية كبرياء وانفة . ويصر أن يذهب فوراً الى الباشا ليخطب لي
ابنته تحدياً لأمي التي ارادت ان تمهل قليلا لتمهد للامر وترسل من
يجس النبض حسب قولها .

ويعود ابي مزج دار الباشا مقهوراً ، محطم الكبرياء ، حتى خيل
الي ان قامته المنتصبه قد انحنت قليلا فقد خاب أمله بالباشا الذي رده
ردا غير كريم . ونوه له بلهجة يفهم منها :

انه كان الأحرى به ألا يتناول الى مقام أرفع منه ، والا يتناسى
هذا الفارق البين بين الأسرتين . ويحلف ابي الا يرى الباشا ، وألا
يكلمه ابداً بعد هذه الاهانة التي لحقته منه .

وتتحطم آمالي كلها كما يتحطم لوح من زجاج شفاف ارتطم بأرض
صلبة . . .

ولا بد لك ان تسألني وكيف كان حالي بعد ذلك ؟

لقد كنت شجاعاً . . . شجاعاً حقاً أكثر مما كنت انتظر انما
نفسي . . . لم ازو في ركن من بيتنا لأجتر مأساتي كأني مراهق بليد ،
لقد كان لدي من الجلد ما يكفيني لكم الألم الذي راح يمزقني فما يبدو
علي منه شيء . . .

وما أسرع ما انتشر الخبر في حارتنا فقد نقله ابو نعيم الذي سمع
مادار بين أبي والباشا الى السائس ، والسائس حكاة الى الحلاق ،
والحلاق وجده خبراً مثيراً لتسلية زبائنه . . .

كنت ألمح الشماتة في عيون شباب الحارة ، فكل واحد منهم
كان يحلم بسنية ، ويعز عليه ان يستأثر بها غيره .

ورحت افكر في كثير من العزم والتصميم لتحطيم السلاسل التي
كانت تشدني الى سنية منذ وعيت الدنيا وان كان في تحطيمها تحطيم قلبي .
فقد كان يخيل الي اني غير قادر على السكن في حي بعيد عنها . . .
وأقرر الهرب من الشام كلها ، لأهرب من مأساتي .

وكان لي خال مغترب يعمل في سان باولو من اعمال البرازيل ،
ليس له اولاد ، وكان يكتب إلي من حين لآخر يمثنني على الحبيء اليه
لأتعاون معه على ادارة اعماله الكبيرة . وكان أهلي يشجعوني على
الذهاب اليه لما ينتظرنني هناك من خير . وكنت أرفض دائماً من
اجل سنية . . .

ولما بلغها خبر عزمي على السفر اخذت تكتب الي رسائل كثيرة
تستحلفني فيها ان لا أسافر ، فهي لا تقوى على العيش بعيدة عني ، وتعذني
بأنها ستسعى دائماً لتهيئة الفرص المناسبة لالتقائنا . وكانت رسائلها تزيد
في ألمي وعذابي ، وكثيراً ما كانت تبكي وتورقني طول الليل . ورغم
ذلك لم أضعف ولم اتخاذل . أريضي سنية ان تكون زوجة لغيري ، وأن
أظل عشيقاً لها طول العمر ، اتحرق على لقاءها ، وأتلصص خلف
الشبابيك والأبواب لأفوز منها بنظرة ! ! . . .

انا لأحب الطرق الملتوية منذ صغري . . .

وكانت الشجاعة في أن أهرب . . .

وهربت . . . واغتربت عن الشام عشرين سنة .

وكان الحظ حليفي في كل خطوة أخطوها في البرازيل ، وتفتح
امامي ابواب الرزق والتوفيق على مصراعها . . . ولكني كنت أشعر
دائماً ان في سعادتني نقصاً ما يعوضه علي شيء . . .

لم أفكر بالزواج أبداً ، ولم أعرف نشوة الحب على كثرة ما عاشرت
من النساء ، كما عرفتها امام سنية . فأنا لم أنسها ابداً . كلما بعد بنا
المهد تألقت ذكراها في نفسي وازدادت تمكناً منها . وتصبح سنية
والشام شيئاً واحداً في مخيلتي ، لاتأتي ذكرى احدهما إلا مقرونة
بالأخرى . وكلما مرت الأيام ازداد حنيني ، ونفد صبري . . .

وذات ليلة استبد بي الأرق ، واللوعة على فراق الوطن فما يصبح
الصباح حتى اقرر ان اجمع ما كسبته ، وأعود الى بلدي التي هربت منها
يوماً بسبب سنية . .

ولشد ما أفرخي وأدهشني ما لمست في بلادني من تقدم وتطور
ما كنت أحلم به ، كما آلمني اختفاء بعض الصور التي كنت ألفتها ،
وحننت إليها في غربتي . . .

ورأيتني ، ولم يطل مقامي بعد ، أتسم اخبار سنية ، ووجدتني
بالرغم عنى ما أبرح افكر بطريقة تتيح لي الالتقاء بها . . . ولكن
الأمر كان أيسر مما توهمت . هل تصدق ان أول دعوة تلقيتها كانت من
سنية ؟ . . .

دهشت ولم تصدق عينايا ما أرى . . . لقد تطورنا يا أخي بسرعة
غريبة الى حد خرجنا به عن المألوف .

فسنية التي تركتها قبل عشرين سنة لا تخرج الى الطريق إلا ملتفة
بملاءة سوداء ، ولا بد ان يرافقها احد ذويها . اذ هي تخرج الآن بمفردها
سافرة تماماً ، ولا ترى حرجاً في ان تدعو رجلاً مثلي الى دارها لتعرفه
على زوجها ، ولا رابطة تربطها به سوى انه كان جاراً لها منذ عشرين
سنة . . .

وأجدني فرحاً بهذه الدعوة انتظر ميعادها بصبر فارغ . ولكنني

عندما وقفت أمام باب بيتها وجدتني متردداً ، خائفاً . . . أود لو أن
أعود . . . خشيت ان أرى سنية قد تغيرت عما كنت أعرفها عليه ،
وانا حريص كل الحرص على ان أظل محتفظاً لها بتلك الصورة الرائعة
المنطبعة في ذاكرتي؛ والتي اتخذتها مقياساً لجمال المرأة . ولكن لامناس
لي من الدخول فأنا لم أعتذر عن الحجب .

وكم عجبت عندما رأيتها وهي في الخامسة والثلاثين أحلى منها في
الخامسة عشرة . لقد امتلأت قليلاً فازداد جسمها بضاضة ولدانة ،
ومسحة من الحزن راحت تكسو محياها فيبدو جمالها أعمق وأقن .

وتقدم إلي "زوجها" — رجل قصير بطين ، تطل البلادة من كل
قسمة من قسبات وجهه . . . وما أظن ان له ميزة سوى أنه ابن عائلة
معروفة ، وقد ورث ثروة طائلة جمعها له الآخرون . . .

كان هذا هو الرجل الذي اختاره لها أبوها ، وكان عليها ان
ترضخ لمشيئته ، مهتماً كان الأمر ! . . . وفي لحظة استطعت ان أقدر
مدى الضيق الذي عاشت فيه هذه المسكينة ! . . .

كان لقاءنا الأول فاتراً ، فكلانا تلعم وارتبك امام صاحبه ،
وبدأت الدعوات تتالى علي من سنية . وأصبح أنا أيضاً اتحين الفرص
التي تتيح لي الالتقاء بها ، فكنت أرتاد الأماكن التي ترقادها هي .
ولكن مامن مرة أتبع لنا ان ننفرد ببعضنا . . . الى أن كانت ليلة أول

البارحة ، و كنت قد تلقيت منها دعوة الى العشاء في مصيف الزبداني .
كانت الدار التي تصطاف فيها سنية مختبئة في بستان كثيف الأشجار .
وأصل في الموعد الذي حددته لي ، أي قبل ان يصل زوجها
بقليل ، ولا أدري فيما اذا تعمدت ذلك أم جاء مصادفة . وجلسنا منفردين
على الشرفة في ضوء القمر . وكانت سنية ترتدي ثوبا من حرير أزرق
له حفيف ناعم ، وعطر البنفسج عطرها القديم تفوح رائحته . .
أراها هل تعمدت ذلك أيضاً لتعيد الى ذاكرتي نفس الصورة التي
رأيتها فيها في آخر لقاء لنا ؟ ؟ . .

اقتربت مني وقالت بصوت ناعم شجي :

لقد حدثتني كثيراً عن أميركا . اما اخبارك الخاصة ، فما سمعتك
مرة تتحدث عنها . .

قلت : أوهمك ذلك ؟ ؟

قالت : يهمني جداً . . . أكثر مما تظن . .

فضحكت وقلت : عما تريدن ان أحدثك ؟

قالت وعيناها تضحكان : حدثني عن النساء اللواتي أحببتهن

هناك .

قلت : أتصدقين يا ترى اذا قلت لك ما أحببت امرأة الا وفيها شيء

منك ؟ . . أحببت مرة امرأة لأن لها صوت ضحكك المرححة ،

وأخرى لأن لها طراوة جسمك اللين . . أما عيناك الأسرتان . .
فلم بحث عنها فلم أر لها ميثلا . .

فاذا هي تنهد من عمق ، وتشرد قليلاً ثم تقول :
- أحقاً ما تقول ؟؟

قلت : أو تشكين بقولي ؟

ويعود إلي عينها ذلك الألق ، الذي كانت محته مسحة الحزن التي
شاعت في وجهها ، وتعطيني يدها ، وأخذها بين يدي . . مازالت
طرية ناعمة كما كانت قبل عشرين سنة . .

ثم تقول هامسة بصوت الناعم الشجي:
أما آن أن تنبت لنا أجنحة ؟

قلت : أما زلت تذكرين اذن حديثنا عن الأجنحة في آخر
وقفه لنا في دياركم البرانية في حى العماره ؟ . .

قالت : مسحك الله ! أو تريدني ان انسى احلى لحظات حياتي ؟؟ . .
لو أنى نسيت لما سألتك سؤالي :

أما آن ان تنبت لنا اجنحة ؟ ؟ . .

قلت : لقد آن لنا ذلك . . فهل لك ان تطيري معي ؟

قالت : الى آخر الدنيا ان شئت . .

ثم تشير بيدها الى البستان الفسيح ، والفيلا الأنيقة التي تضم
زوجها وولديها وتقول :

سأخلى عن كل ماترى من أجلك . . . كانت تقولها
تصميم وتحسد .

وأطوقها بذراعي ، وأشدها إلى صدري ، وأشعر بأنفاسها تلمح
وجهي ، ويروح قلبي يضطرب ، وكياني يرتعش ، وتعاودني تلك النشوة
التي ما عرفتها امام امرأة غيرها . . .

ولكن حركة صغيرة جعلتنا نفترق في مثل لمح البصر ونحن في
اوج نشوتنا ! . . .

كانت هذه المرة آتية عن ملاكين صغيرين جاءا يتعثران بثوبين
ابيضين للنوم ليأخذنا من امها قبلة المساء . . .

قامت مرتبكة وقالت :

سأغيب قليلاً ، وتخرج من الشرفة والصغيران يقمزان امامها ،
ويتطاولان ليقبلاها في عنقها ، وهي تحوطها بذراعيها ، وتحنو عليهما ،
وتداعبهما . . .

واقف برهة ، ارقب هذه الصورة الرائعة وهي تبتمد عني شيئاً
فشيئاً في البهو الأنيق ، صورة ام شابة يحف بها طفلان كملاكين ،
لوحة رائعة لم يبدعها فنان بعد . . .

وأروح أفكر وأنساءل :

أيجوز لي ان أفسد هذا الجمال ؟

أن أشوه اللوحة الرائعة ؟

ان أبدل سعادة الملاكين الصغيرين تعاسة ؟

أن أهدم هذا البيت ؟ ؟

لا . . لا لن أقدم على ذلك . .

وكان للشرفة التي أقف عليها درج متصل بالحديقة ، قفزت

درجاته بسرعة ، وهربت .

ثم يحدق سعدي بك الى جليسه ويقول :

أتدري لماذا دعوتك اليلة ؟ ؟

ثم يمد يده الى جيبه ، ويخرج منها بطاقة سفر الى أميركا ، يلوح

له بها ويقول :

دعوتك لأسهر معك هذه اليلة ، آخر ليلة لي في دمشق حتى

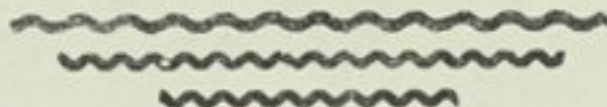
يحين موعد الطائرة . وهاهو ذا قد حان . خشيت يا أخي أن تنازعني

نفسي اليها ، فلا أقوي على ردها مادمت انا وهي في بلد واحد ، لا بد

ان تجمعنا مناسبات ومصادفات .

لقد عاد جها الى قلبي أعنف مما كان ، فاما ان أقدم على أمر

أعتقده جريمة ، وإما ان أغادر دمشق الى غير رجعة . . . كما سبق
لي أن غادرتها قبل عشرين سنة من أجل سنية .
ثم يقوم متناقلاً ، وهو يحدق بعينين نهمتين الى السهل الفسيح الذي
ترتاح فيه دمشق ، كأنه يتملى منها وشفتاه تتمتان بلوعة :
وداعاً يادمشق لالقاء من بعده ! . . .



انخزم أمي ام لطفل

القيت على عاتقي ذات صباح مهمة شاقة عسيرة ، وكان لا بد لي
أن أقوم بها مها كلفني الأمر ، فليس من السهل علي أبدأ أن اتواني عن
تحقيق أمنية امرأة على فراش الموت ، كانت قد بعثت الي بمن يرجوني
ان أقنع ابنتها — وهي أعز صديقة لدي — لتذهب الى المستشفى وتودع
امها التي تحتضر !

وكانت الصلات قد انقطعت بين صديقتي هذه وامها منذ افترقت
عن أبيها وتزوجت برجل آخر .

و كنت أخشى ان يبوء مسعاي بالفشل ، فأنا أعرف صديقتي عنيدة ،
متشبثة برأيها الى حد بعيد ، لا تطيق ابدأ أن يتدخل احد في شؤونها
مها تكن منزلته اثيرة لديها ، لاسيما فيما يتعلق بمشاكلتها مع أمها .

وقد وقع ما كنت احذره .. فقد رفضت سعاد وساطتي في بادىء
الأمر ، بما جعلني أثور عليها وأقول لها بشيء من التأنيب :

— ما كنت أحسبك قاسية الى هذا الحد !.. أوكد لك انك مستندمين

على تصرفك هذا .. بل مستبكين ندماً ، ولكن حين لا ينفع الندم ،
ولا يجدي البكاء ! .

ورغم ما قلته لها تظل سعاد قاعدة امامي جامدة القسما ، لا يبدو
على وجهها شيء من اضطراب أو حزن ، وترد علي ببرود قتال :

— لن اذهب .. لا تتبعي نفسك اكثر مما اتبعتها . قلت لك انني
اعتبر امي ميتة منذ زمن بعيد ، منذ أصرت على الطلاق من أبي لتتزوج
من ذلك الرجل التافه .. كنت أتوقع لها هذه النهاية المؤلمة ! . ولكن
جاءت أسرع مما كنت انتظر .. سمعت انه تخلى عنها وهاجر الى أمير كا
دون أن يهتم بامرها ، أو بأمر الجنين الذي في أحشائها ، انها الآن
تلقي جزاءها .. وقد حزنت عليها ما فيه الكفاية ، منذ أقدمت على ما أقدمت
عليه ، وقد بلي حزني في طيات نفسي كما تبلى جميع الاحزان في قلوب
الناس اذا ما عدا عليها الزمن ، فلماذا جئتني أنت الآن تريدني ان تبعثي
أحزاني من جديد ؟ .

وينفتح علينا باب الغرفة قبل ان أurd عليها ، ويظهر أبو سعاد
بقامته المديدة المهيبة ، كان ممتقع الوجه ، تحتلج اجفانه خلف نظارتيه
كأنه يحاول تبديد دموعه . كان واضحاً انه سمع حوارنا ، وبلتفت الى
سعاد ويقول لها بصوت خفيض مضطرب فيه لهجة عتاب وتأنيب :
— سعاد ! يجب ان تذهبي يا بنتي الى حيث تدعوك صديقتك .

تم يفتل بسرعة ، ويدخل غرفته ويوصد بابه كأنه يخش
يتبعه أحد منا ! . .
قلت لسعاد :

لا يجوز لك ان تعصي أباك ، كم هو رجل نبيل ! . أما أنت فما
أدري ما أقوله عنك ؟ ؟ .

وتمثل سعاد أخيراً لكلامي فتسير أمامي مستسلمة دون أن
تنبس بكلمة . ولما ركبنا السيارة لاحظت أنها تعاني حرجاً شديداً .
كانت صامتة ينضح وجهها عرقاً . وتلاحق أنفاسها كمن أصيبت بحمي
طارئة . وقبل أن نصل بقليل تلتفت الي وتقول :
أحقاً انها تموت كما تزعمين ؟؟ اني لا أريد أن اصدق ذلك . هذه
حيلة منك قد اصطنعتها كي تجمعي بيننا بعد فرقتنا الطويلة .

قلت لها :

- أقسم لك ان خالك قد جاءني هذا الصباح وقال لي :
ان أمك قد اصيبت بنزف بعد الولادة ، وقد قطع الطبيب كل
أمل من شفائها . وكانت تهذي طول الليل ، وتطلب رؤيتك بالحاح .
فما أن طلع الصباح حتى هرع الي يرجوني أن أقنعك بالهجيء .
قالت :

ما أصعب هذا اللقاء علي ! . وراحت تفرك يداً بيد من شدة
اضطرابها . ورحت أهون عليها الأمر ما استطعت . ولما وصلنا المستشفى
كان بهوه خالياً الا من بعض ممرضات كن منهمكات بأعمالهن ، ما يكدن

يظهرن حتى يَخْتَفِين ثانية . وكان خال سعاد واقفاً لصق احد الجدران ،
وقد اسند رأسه الى عارضة باب ، فما ان رآنا حتى قال كلمة واحدة
خرجت من فمه ككذيفة :

• ماتت ! •

ويشير بيده الى سعاد إشارة تفيد أن أفرحي أو اشمتي ماشاءت
لك الشهادة .

ويفاجئني الخبر فأجلس على أحد المقاعد مذهولة ، بينما تظل سعاد
واقفة مكانها ، كأن قدميها قد سمرت بالأرض ، تنظر حولها بعينين
متسعتين من الارتياح ، وقد بدت عليها مسحة من بلاهة ، مارأيتها على
وجهها قط .

وجأة تظهر امرأة خالها من خلف احد الأبواب . امرأة صغيرة
الجسم مكهربة الوجه ، مربدة السحنة ، تم نظراتها عن خبث ولؤم .
وتقف متحفزة على بعد خطوتين من سعاد . وكأنها استطاعت في آخر
لحظة ان تكبح جماح لؤمها ، فاكتفت بأن قالت لها :

أخيراً وصلت ! . . ياليتها لم تخلفك ! . .

ثم تلتفت إلى زوجها وتقول له متحدية :

— مشا كل أختك معقدة حية ميتة ! . . لم تعد تجوز عليها إلا الرحمة .

قل لي ماذا قررت أن تفعل بشأن الطفل ؟ ؟

أقول لك ولآخر مرة : ان أدخله بيتي ، لسنا مازومين به أبداً ،
يكفيني ما ألقاه من متاعب أولادي .

ويرفع الرجل يديه الى السماء ويقول :

ماهذه المصيبة ياربي ؟ ! . . أتريدني أن ألقيه على قارعة الطريق؟
ومن سيكفله إن لم أ كفله أنا ؟ من أين لي أن أطول أباه ؟ ؟

وتلفظ سعاد كلمتين فقط ، توجهها الى امرأة خالها دون أي تمهيد:
هاتي الطفل .

و كأن الكلمتين الصغيرتين قد حفتا الأزمة المعقدة ، فاذا الحزن
ينزاح قليلاً عن وجه الرجل ، وتنفس امرأته بارتياح كمن ألقى عن
كاهله حملاً ثقيلاً ، ثم تذهب مسرعة ، وتغيب قليلاً ، ثم تعود حاملة
الطفل على ذراعها ملفوفاً بقمط أبيض ، وقد أسدل على وجهه منديلاً
شفافاً يدل على أنه مستغرق في نومه ، ويدها الثانية كانت تحمل صرة
صغيرة يبدو أنها جمعت فيها أشياء الطفل . وتعطيها إلى سعاد وهي تقول لها :
- انه أخوك على كل حال ، وأنت أولى به من الجميع .

وتتناول سعاد الطفل كما يتناول الشيء . . . ثم تحمل الصرة
وتتجه نحو الباب بخطى مضطربة ، دون ان تكلم أحداً . ولقد تركتني
دون أن تلتفت إليّ أو تطلب العون مني ، أنا التي أقنعتها بالهجي ،
ورافقتها الى المستشفى . . ويبدو لي تصرفها غريباً . وقد فسرتة بانها
لا تريد أن يطلع احد على ماسيجري بينها وبين أبها اذا ما فاجأته بالطفل .

وصممت بعد ذلك على أن لا أزورها مالم تبادثني هي بالزيارة ، أو
تدعوني إليها ، كي لا أسبب لها حرجاً . رغم أنني كنت متلهفة على معرفة
أخبارها أشد اللهفة .

وبعد شهور قليلة تردني منها هذه الرسالة التي تقول لي فيها
فيما تقول :

« كلما آويت إلى فراشي استبد بي الأرق ، وراحت ذاكرتي
تستعيد دقائق الأمور التي كانت تجري في بيتنا منذ بدأت أعي الي يومي
هذا . فاذا الحقائق تنكشف لي عن أمور تذهلني ، وتخيفني ، لأن من
الصعب علينا ان نحكم على أنفسنا في معركة نخوضها ، ولكن عندما تنتهي
المعركة وتصبح رهينة في طيات الزمن ، تراءى لنا أحداثها من بعيد ،
وتزداد وضوحاً كلما بعد بها العهد ، فنستطيع عندئذ ان نتجرد من ذاتنا
الغابرة ، وأن نحكم على أنفسنا حكماً قد لا يبعد كثيراً عن الصحة .

لقد انتهت معركةنا بموت أمي ! . . بعد ان ظلت محتدمة في
أسرتنا الصغيرة سنين طويلة . لقد تبين لي اننا كنا ننسج مأساتنا بأيدينا ،
ننسجها خيطاً خيطاً بتؤدة ، وحرص ، وروية . دون أن نفطن بأننا
سنكون الضحايا .

و كنت - ويا هول ما كنت - اقبض على الخيوط بيدي ، وأوزعها
كيفما شئت . وأحب الآن ان أشرح لك كل ذلك ففي شرحه راحة لي ،
ووفاء لأمي .

عندما كبرت قليلاً كان لا بد - كلما رافقت أُمي - ان تتردد
أمامي جملة تقهرني وتحز في قلبي :

هذه ابنتك ؟؟ سبحان الله انها لاتشبهك أبداً .
وافهم أنهم يريدون أن يقولوا اني لست جميلة كأُمي .
وتضحك أُمي ضحكة هازئة تبحرني في صميمي وتقول :
كأنها صورة عن أبيها ، وهي مثله أيضاً ، ذكية وتحب اللبس
والمطالمة .

وأدرك انها كانت تقول ذلك مراعاة لي . ولكن هذه المراعاة
كانت تؤذيني أيضاً وتزيد في ألمي . وبالرغم من صغر سني كانت لدي
القدرة الكافية لأن أوارى هذا الشعور في أعماق نفسي فما يبدو منه
شيء ولكن لم يلبث مع الأيام حتى استحال حقداً وكرهاً لأُمي .

كم كنت أتمنى أن أكون جميلة مثلها ! . . . وأذكر انني كثيراً
ما كنت أجلس صامتة مكبوتة ، أتفرس في وجهها المشرق الجميل ،
وأقارن بينه وبين وجهي ذي الأنف الكبير والعينين الصغيرتين والبشرة
الكالحة . فأشعر بالغيرة تلذع كبدي الصغير ، وبالحدقديماًلأنفسي الغضة ،
ولا أجد ما أنفوس به عن كبتي سوى ان أشاكس أُمي . وكلما رأيتها
منزعجة كنت أشعر بارتياح ، وأظل أمعن في استفزازها حتى أحملها
على ضربني ، حينئذ كان لا بد أن ينتصر لي أبي فيقع بينهما من جراء ذلك
خلاف شديد ، كنت أراقبه فرحة شامتة .

وتستمر هذه الحال طوال مدة طفولتي ، حتى ينشأ شيء من النفور بيني وبين أمي ، وكانت - المسكينة بدافع من حنانها تحاول دائماً أن تمحوه ، بينما كنت انا أثبت أصوله .

ولما تخطيت الطفولة راحت مشا كستي لأمي تأخذ شكلاً آخر . كنت قد برزت في دراسي ، وراحت تظهر علي بوادر ذكاء عجيب . وكان أبي فخوراً بي يقدمني الى زملائه الاساتذة معترفاً بذكائي وثقافتي التي قلما يحصلها من كان في مثل عمري . وكان بشر كني بالأحاديث التي تدور بينهم . ولما استويت صبية رحت أطلب منه أن يدعو الى بيتنا أهل الفكر والأدب من رفاقه ، حتى أمست سهراتنا ندوات لا يسمع فيها الا احاديث الأدب والفن . وقد تمتد أحياناً حتى منتصف الليل ، وكانت أمي تجلس بيننا صامتة . وكلما حاولت أن تشترك في بعض المناقشات ظهر جهلها جلياً . وكنت ابتم بحبث هازئة بها ، واشعرها دائماً بأن لا مكان لها بيننا ، فكانت في اكثر الاحيان تنسحب من بيننا غاضبة وتقعده في غرفتها مقهورة ، او تستلقي على سريرها وحيدة نائمة .

كنت أحب ان أثبت لأبي ، ولأمي ، وحتى لنفسي أيضاً بأن الجمال لا قيمة له إذا ما قورن بالذكاء والثقافة ، وان الأناقة التي تستهلك معظم أوقات المرأة ماهي إلا دلالة واضحة على تفاهتها . وكان أبي يؤيد رأبي دائماً .

وكانت أمي مقابل ذلك تهزأ بمجديتنا ، وتسخر بكل مازاه جليلاً

١٤٠ يا . ويخيل إلي الآن ان الثرثرة الفارغة التي كانت تضجربنا بها كلما رأنا غارقين في كتبنا ، ماهي إلا من قبيل الدفاع عن النفس .

ويظل هذا حالنا سنين طويلة حتى يأتي يوم تتسع فيه الشقة بيننا فتجد أمي نفسها كالغريبة في بيتها ، تقعد بيننا كالضائعة ، لا أحد يعيرها اهتماما ، أو يعمل برأيها . وليس من السهل ابداً ان تستسلم لمثل هذا الموقف امرأة معتدة بنفسها ، كأمي ، جميلة لا تزال في عز صباها ، لم تتخط - السادسة والثلاثين من عمرها ، عندما تكون خارج بيتها تحاط بكل حفاوة واهتمام ، حتى اذا عادت اليه شعرت بأنها امرأة لا أهمية لها تكاد تفقد ثقتها بنفسها . فليس عجباً اذا ان ترغب بالخروج من البيت دائماً ابداً . فكانت أحياناً تمضي السهرة بالسينما ، أو عند بعض صديقاتها بينما نظل انا وأبي غارقين في دراساتنا وندواتنا ، ويصبح غياب أمي عن البيت أمراً مألوفاً لدينا . ويبدأ شيء من الجفاء والسلا مبالاة يسود حياتنا بالنسبة لأمي .

وفي غمرة ذلك كله تتعرف أمي على رجل هو قريب احدي صديقاتها ، لا يلبث أن يعجب بها ، وتعجب به ، فيطري جمالها وفتنتها ويمتدح اناقته ولباقته، وكان بذلك كله يعيد اليها ثقتها بنفسها ، في سن هي احوج ماتكون فيه الى تلك الثقة . . ويشعرها بأهميتها التي فقدتها بيننا .

فكان ان تشبثت به وأصرت على الطلاق من أبي لتتزوج منه .

أما أبي المسكين فكان كصبي مل دميته كما تمل الدمى ، فأهملها
في ركن من بيته مطمئناً الى وجودها بقربه ، وانه يستطيع اللهو بها كلما
عاودته الرغبة فيها . ولكن لما جاء غيره يسلبه إياها حلت في عينيه ،
وصعب عليه الأمر حتى كاد يخيل اليه انه غير قادر على فراقها . وبالرغم
من ذلك كله لم يستطع ان يفرض نفسه عليها . . واضطر ان يوافق على
الطلاق مرغماً ، امام اصرارها الشديد الذي جرح كرامته ، وأهان
رجولته . . وكان علي وحدي ان اداري آلامه ، وأهون عليه الأمر
ما استطعت . فكنت أثور على تصرف أمي ، وأثبت له دائماً انها امرأة
تافهة لا تستحق ان تكون زوجة لرجل مثقف ، مفكر مثله .

كنت لا ازال أخوض المعركة معصوبة العينين ، حتى إذا جاءت
النهاية المريعة صحوت فجأة ، وراحت تنزاح الستور أمام ناظري سترأ
سترأ .

أتذكرين موقفي يوم المستشفى ؟ لقد خيل الي في تلك اللحظة
ان أمي كانت تلح في طلبي لتعهد الي بالطفل ، فمها كان أمري معها ، فانا
أرأف به من امرأة أخيها اللثيمة .

ومنذ ذلك الحين راح يتحرك في أعماق نفسي شيء يوحى الي
أني كنت وحدي المذنبه .

ولما جئت بالطفل الي بيتنا كان أبي يذرع الردهة جيئة وذهاباً
من الباب الى الشباك ليطمئن على مصير أمي فما يزال يحفظ لها في قلبه

شيئاً من العطف والحب . ولما رأني أحمل الطفل على ذراعي نظر إلي
مشدوهاً لحظة ثم قال :

- وياك ماذا تحملين؟ ؟ .

قلت متحدية :

- أحمل أخي . . . لقد ماتت أمي بعد ان عهدت إليّ به ، لا بد
لي أن أراعاه . . وأنفجر باكياً ، ويزعق الصغير على ذراعي زعيقاً
متواصلاً ، مما يزيد في حرج الموقف .

فيهرول أبي إلى غرفته كأنه يهرب منا وهو يقول :

- افعلي ما تريدن . . ولكن إياك ان تربني وجهه ، أو تسمعيني
صوته . . ثم يصفق الباب خلفه صفقة قوية تأتي كاحتجاج صارخ على
تصرفي الوقح دون استشارته .

وأدرك انني اظلم أبي . فوجود الطفل بيننا سينفص عليه عيشه ،
فهو ابن غريمه ، وابن المرأة التي تخلت عنه بعد عشرة عشرين سنة . وعدا
ذلك لا بد ان يتقول الناس بما لا يليق به . كذلك فان وجود الطفل بيننا
سيحول دون نسيان الأمامة .

ولكن لا سبيل للتراجع أبداً .

وأختار للصغير أبعاد غرفة عن غرفة أبي . ويبدأ يدب بيننا شيء
من الجفاء والبرود . أبي معتكف في غرفته بين كتبه وأوراقه لا يبرحها
إلا نادراً ، وأنا منصرفه للعناية بالصغير وللدراسة فيما تبقى لي من الوقت .

وراح يحيم على بيتنا صمت كئيب لا يחדشه إلا زعيق الطفل بين كل حين
وآخر . كأنه يذكرنا بمرارة واقعنا كلما سهونا عنه . ولم تعد سهراتنا
ندوات يؤمها أهل الفكر والأدب كما كانت في الماضي ، الأمر الذي
أضجر أمي . وكأن الأقدار شاءت ان تنتقم منا على يدي هذا الصغير ،
وبالرغم من ذلك كله بدأت أحبه .

كنت أجد في رعايته لذة لامثيل لها في حياتي . كنت أعود
الى البيت متلهفة على رؤيته . وراح ينمو بسرعة غريبة حتى غدا في
بضعة شهور طفلاً رائعاً . كنت أضعه في حجري أناغيه وألاعبه ،
وأفقس في تقاطيع وجهه المكثمة ، وفي عينيه الواسعتين ، إنه صورة
مصغرة عن أمي ! . . . ترى لو أن هذا الشبه جاء في أنا أما كان
تغير مجرى حياتنا من أساسه ؟

كنت أتمنى ان تواتيني الشجاعة الكافية لابسط هذه الحقائق التي
اكتشفتها امام أبي . لا بد له عندئذ أن يففر لأمي ، وسيحب الطفل
حتماً . ولكنه سيدبني كما أدنت نفسي . . . ومن يدري ربما كرهني ،
وهذا مالا طاقة لي به .

وذات ليلة وبينما كانت هذه الفكرة تنخر في رأسي كسوسمة
دؤوب ، اذ يتناهى إلي بكاء الصغير ، وأتلكأ عنه قليلاً فاذا البكاء ينقطع
بجأة ، مما يشير خوفاً عليه ، فأقوم بسرعة لأتفقده ، فاذا أبي قد سبقني
الى غرفته . وأقف خلف الباب من حيث أراه ولا يراني ، وكم كانت

دهشتي عظيمة حين رأيتك يحمل الصغير على ذراعيه ، ويهدده بحنان
واضح ، - هو الذي كان لا يريد أن يراه أو يسمع صوته - ولكن
الصغير لم يسكت ، فراح يؤرجحه ذات اليمين وذات الشمال ، حتى إذا
نام أعاده الى مهده بتؤدة ورفق ، ويقف يتأمله وفي نظراته عطف ولين
ثم تنحدر من عينيه دموعتان يمسحها بأصابعه .

مسكين أبي لماذا يخفي شعوره عني ؟ أترينه يخجل بتسامحه ،
وحنانه ، ويرى فيها خنوعاً وضعفاً ؟

حقده المرير ذاب كله في حلاوة ابتسامة صغيرة على ثغر طفل
بريء . . . وكبرياؤه وجبروته تداغت كلها أمام طفولة هشة ضعيفة !
لقد انهزم أمام طفل . . .

لابد لي أن أمزق هذا الحجاب القائم بيننا . واقتحم عليه الغرفة
فينظر إليّ مرتبكاً ثم يتسم بخجل ، وألقي رأسي على كتفه ، ونجشش
بالبكاء معاً .

سلاطين مخفية

بعد قليل سيصل الى الضيعة ... ما أشد حنينه اليها ... ويشعر
أنه خفيف الوطاء على الأرض . يسير وكأنه مجنح يطير .

بعد ربع ساعة فقط وسيمرغ جبهته على تربتها السمراء ، سينشق
عقبها الطيب ، سيعانق الدلبة الضخمة التي تظلل العين في مساحة القرية .
ما أشد شوقه اليها .. ويتذكر كيف كان ورفاقه يتسلقونها كالنسانيس
الصغيرة ويختبئون بين أوراقها الكثيفة ثم يقطعون حبات الدلبة
ويقذفون بها الصبايا وهن يملأن جرارهن من العيين ، وكم كانوا
يضحكون عندما تنصب عليهم شتائمهن المقزعة .

ويمد يده الى عبه يتحسس بها السند الذي استلمه البارحة كأنه
يطمئن على وجوده . لا ليس هو حلاماً ، ولا وهماً ، انه حقيقة واقعة ..
وها هي ذى يده تقبض عليه . لقد أصبح ملاكاً ... ويميل برأسه الى
الوراء معتزاً ، ويضحك بعمق ملء فمه وقلبه كما لم يضحك أبداً .

ويعر بخاطره قول زميله محمود الذي كان يعمل معه في رصف الطرق:

- يا بختك يا حسين .. ستأخذ نصيبك من الأرض، يا ليتني فلاح
مثلك !.. مافي أبرك من الأرض . المثل يقول :

فلاح مكفي سلطان مخفي .

- هذا صحيح يا محمود ، ولكن الفلاح لا يصبح يا أخي مكفياً
الا اذا ملك الأرض . سنملكها ... سنصبح كلنا سلاطين مخفية . .
لن تغضب السماء بعد اليوم ، ولن تجس المطر عن الأرض أبداً وقد
عادت الأرض الى أبنائها . لن تعطش أراضيها ، سنسقيها من عرفنا ان شح ماؤها .
ويغد السير خفيف الوطاء كأنه يطير .

منذ عشر سنوات هجر قريته ولم يبطأ أرضها أبداً . جاء يعمل في
المدينة . وكان كلما نازعه الحنين الى مراتع طفولته وملاعب صباه ينبش
من أعماقه تلك الذكري المؤلمة ليتخذها كترس يصد به جبه العنيد
لها حتى يحمله مقتا وكرها .

كانت أيام البيادر أحب المواسم اليه كان يلعب ورفاقه بين
كومات القمح أو يركبون على النوارج التي تدرس القمح المفروش
على البيدر دوائر ، دوائر . وكان صوت المذراة يملأ البيدر ضجيجاً ،
وأبوه مع رجلين آخرين يقفون أمام المذراة يلقمونها القمح المدروس
بمركبة آلية فتفصل عنه التبن وتلقيه جانباً ، ويأتي رجال آخرون
يرفعون القمح بالقفف ويجمعونه كومات كومات كاهرامات سامقة .
وكان يعج من المذراة غبار كثيف ينغمد كسحب متراكمة فوق

رؤوس الرجال ثم يحط عليهم شيئاً فشيئاً ويلتصق بأجسادهم التي كانت
تنضح عرقاً ويكون فوقها طبقة لزجة قدرة ، وعندما تنحدر الشمس
وراء الجبل كانت أشعتها الحمراء تنفذ خلال الأشجار المحيطة بالبيدر
وتستقر على اهرامات القمح فتبدو وكأنها موشاة برسوم ذهبية عجيبة
تراقص كلما هبت نسمة . وعندما تسقط الشمس وراء الجبل وتختفي
الظلال كان هذا ايذاناً بانتهاء النهار ووقف العمل . فتصمت عندئذ
المذراة عن ضجيجها ، ويفك الدرّاسون الثيران من النوارج ويسوقونها
الى مرابضها ، ويسمع من حين لآخر جئير أصواتها كأنها تخرج على
شيء ما . ثم يخيم سكون حلو على البيدر وتحوم فوقه أسراب العصفير
وتهب نسائم بليلة تسترخي لها أجساد الرجال المرهقة فيضطجعون على
الأرض يدخلون صامتين ساهمين . عندئذ لا بد ان يظهر الأفندي قادماً
من أول البيدر يحف به بضعة رجال . فيقف ابوه ورفاقه متهيئين بمد
أن يطفئوا سجائرهم باصابعهم .

كان يكره الأفندي ، ولا يعرف لذلك سبباً ، و كثيراً ما كان
يتساءل في نفسه : عجباً لهذا العجوز المعروق الوجه ، القاسي النظرات
الذي يسمونه الأفندي ، لما يهابه هؤلاء الرجال الأشداء ؟

ألأنه لا يضحك أبداً ، ولا يرد تحياتهم الا بتكلف . وكان
الأفندي يعد كومات القمح ويقيد عددها في دفتر يحمله في يده بينما يسير
وراءه رجل يحمل بيده قطعة خشب يسمونها الروشم يمررها على كومات

القمح التي احصاها الأفتدي فترك فوقها خطوطاً وأشكالا تشبه الكتابة ،
وكان حارس البيدر يطارد الاطفال ويضربهم اذا اقتربوا من كومات
القمح المرشومة . و كان يرى ذلك أصيل كل يوم من أيام البيدر
فلا يفقه له معنى .

وذات يوم كانت أمه مريضة . وكثيراً ما كانت أمه تمرض
فتنطح على الحصيرة ايما وحدها في غرقهم المعتمة ، وأحياناً كان
يسمع الداية ام سليم تقول لأبيه :

- طرحت مراتك صبياً ! . لاتزعل يا بني ماله شقاء في الدنيا .
العوض على الله ، أنت شب ومريم صببية ، الله يخلي حسين شمعة تضيء مدينة .
ويتمم أبوه والأسى باد عليه بكلمات لا يفهمها ، ثم يضع في يد أم سليم
شيئاً من المال تفحصه بعينها العشاورين ثم تدسه في عهبا وهي تبرم
وكانها غير راضية . وبعد أيام قليلة كانت أمه تخرج من البيت هزيلة
شاحبة تجر رجلها وتتبع أباه لتعمل معه في الحقل . وكثيراً ما كان
يفمى عليها وهي تعمل فيأخذ أبوه قليلا من الماء ويرش به وجهها حتى
تستفيق ثم يعود بها الى البيت وهو يشتم ويلعن الحياة والعمل بينما تظل
أمه مستسلمة تتوكأ على ذراع أبيه وتجر رجلها دون أن تنطق بكلمة .
لاشك أنها الآن كعادتها تطرح ولدا ماله شقاء في الدنيا كما تقول
الداية أم سليم . ويوصيه أبوه قبل أن يخرج من البيت ، ان يظل الى
جانب أمه لانها مريضة اكثر منها في كل مرة .

كانت تئن أنيناً متواصلاً ، وتطلب منه في كل آونة ان يناولها
ابريق الماء فكانت تفرغه في جوفها ثم تعود الى أنينها ، و كان وجهها
يزداد شحوبا ، ويشعر بضيق وملل ، ويهم أن يتركها وشأنها ، ويذهب الى
البيدر ليلعب مع رفاقه ولكنه خشي أن يضربه أبوه ، فكان يكلمها
ليبدد ملله فلا ترد عليه . ثم راحت تشخر شخيراً مخيفاً . كان أبوه ،
يشخر أحياناً عندما ينام وبغمض عينيه ولكن أمه تشخر الآن مفتوحة
العينين شاخصة بها الى السقف . ماذا ترى في السقف يا ترى ؟

وينظر الى حيث تنظر فلا يرى شيئاً . . ثم يرتد بصره الى الأرض
فيرى خطوطاً من الدم تجري من الحصيرة الى أرض الغرفة ثم تتكوم
في العتبة بقعة كبيرة لزجة تنتشر منها رائحة تبعث على الغثيان .

وتصمت أمه عن الشخير فجأة بعد أن يرتعش جسمها قليلاً ، وتظل
عينها مفتوحتين شاخصتين الى السقف ويتملكه هلع شديد فينظر اليها
بعينين متسعيتين . ويشعر بدوخة ، ولكنه يقول بصوت مسموع كأنه يريد
أن يؤكّد ذلك لنفسه : نامت .

ثم ينسل من الغرفة على رؤوس أصابعه ويفلق بابها بتؤدة وينطلق
را كضاً في الزقاق كأنه يفر من شيء يلاحقه .

ويتوقف قليلاً حين يسمع صوت يباع حلاوة ينادي بصوت حنون
منغم على الحلاوة الجوزية والسسمية ، ويطف ريقه . منذ أمد بعيد لم
يذق طعم الحلوى .. وكان يعرف أن يباع الحلاوة يقايض على الحلاوة

بالقمح ويركض نحو البيدر ويملاً طاقيته من أول كومة ويرتد الى بياع
الحلاوة فيدفع اليه القمح ويتناول منه قطعتي حلاوة ، وينظر اليها بفرحة
وشراهة ويلحس من كل واحدة لحسة ويسير على مهل نحو البيدر .
سيقعد هناك ويأكلها على مهل ليتلذذ بها .

كان في البيدر شغب وضجة . ويرى الأفندي واقفاً أمام كومة
قمح يرغي ويزيد ويقول لمن حوله: لقد سرقت الكومة وأنا لا أزال في
البيدر ويشير بأصبعه ، انظمت الحروف وانهارت الخطوط أما ان
أعرف السارق أو أخصم مدين من حصة كل واحد منكم .

ويقف مبهوتا ، الآن عرف الغاية من رشم كومات القمح
بالخشب . ويحتج الرجال ثم يستعطفون الأفندي ولكن الأفندي لا يلين .
كان هو اذن سبب هذا البلاء !.. وترتخي يده وتسقط منها قطعاً
الحلاوة فوق التبن فلا يأبه لهما أبداً ، ويرى أباه يخرج من البيدر،
ويتجه نحو بيته وهو يبرر بشتائم لا يفهمها ، فيتبعه صامتاً حزيناً ، ومان
يدخل أبوه الغرفة حتى يحملق بأمه - التي لا تزال
شاخصة بعينها نحو السقف - ثم يصرخ : باطل عليك
يامريم ! ! ! عملتها . ثم يضرب جبهته ويكي بصوت عال كالأطفال ،
ويحس هو وكأنه يختنق . كان يريد ان يبكي فلا يستطيع ، ان الشعور
بالذنب بدأ يعذبه . كان يعرف ان أمه قد ماتت ، وكان يجب عليه أن

يتألم ويبكي ويخبر أباه ولكنه لم يفعل . كان يريد ان يهرب من مأساته
فراح يخدع نفسه ويتجاهل الواقع ليعده عنه ما استطاع . . اما الآن فلم
يبق أي مجال للتمويه . كان يقف مذعوراً امام الحقيقة فلا يدري كيف
يتصرف ، ولا كيف يتألم كأنه ضائع في متاهة وقد فاجأه فيها وحش
مخيف فوقف أمامه مصعوقاً ينظر إليه بعينين متسمتين هالعتين ، يريد أن
يفر فلا يقوى على الفرار .

ولا يدري كيف شاع الخبر في الضيعة فيمتليء بيدهم رجالاً ونساء ،
وتقول جارتهم ام بسمة لابنتها الصغيرة بسمة : خذي حسين الى دارنا
وابقي معه هناك . وتسجبه بسمة من يده فيتبعها صاغراً . وما ان يدخل
الدار حتى يشعر هو بارتياح كأنه قد فك من قيوده . . وينفجر باكياً .
ما ألد البكاء عندما يستطيعه الانسان . ويود ألا ينتهي من بكائه أبداً .
وكانت بسمة تبكي معه وتمسح دموعه المنسكبة على خديه بيديها الصغيرتين ،
وتربت كتفه بمحنان ، ويعود أبواها ، ويلطفانه حتى يهدأ قليلاً . وينام
ليلتذ على حشية الى جانب بسمة فيشعر بشيء من الاطمئنان والرضى
يتسرب الى قلبه رغم حزنه الشديد . ومنذ ذلك الحين راح يلزم بسمة
وأهلها فيجد عندهم رعاية وعظفاً كان في أشد الحاجة إليها — لاسيما بعد
ان تزوج أبوه — ويصبح مع الزمن لا يستطيع فراق بسمة أبداً . كان
يجب ان يعمل حيث تعمل هي فيخفف مرآها كل شقاء ، يلم به . ولكن
الذي كان يغيظه تماماً هو ان بسمة التي تصغره بسنة واحدة كانت تبدو

شابة وكأنها أكبر منه ، وكانت تزداد مع الايام حلاوة فما ان تجاوزت
الرابعة عشرة حتى أصبحت احلى بنت في الضيعة ، قامتها مديدة وعيناها
بلون العسل الصافي ، ووجهها أسمر مستدير تشوبه حمرة كرفيف القمح
عندما تلفحه نار التنور . وعلى خدها الأيسر شامة بنية كأنها فلقة بن
محمصة . وكان شباب الضيعة يتوددون إليها ولكنها كانت تؤثر عليهم جميعاً
صديقتها القديم حسين .

وذات مرة كان من عادة الأفندي ان يسخر صبيان الضيعة أيام
البيدر ليحملوا أكياس القمح ويضعونها في السيارات التي منقلها الى
الأسواق . وكان حسين عندما يحمل الأكياس يتعمد أن يمر أمام بيت
بسمة الذي كان قريباً من موقف السيارات ليرأها في رواحه ومجيئه .
وكان يرى دجاجاتها تلوب فلا تعثر على حبة قمح فكان يثقب بظفره الكيس
الذي يحمله فتساقط بضع حبات من القمح وتتراكض الدجاجات لتلتقطها ،
وكم كانت تضحك بسمة لمرآها ويضحك هو ، ويكتشف الوكيل أمره
فيشكوه الى الأفندي . وعقوبة الأفندي لا تتغير أبداً خصم مدّ من
حصّة أليه لأنه سراق !

في تلك الليلة قال له صديق : إذا أردت ان تأمن شر الوكيل
فما عليك الا ان تبعد عن بسمة ما استطعت لأن الوكيل خطبها البارحة
من أبيها وسيتزوجها آخر موسم الحصاد .

هذه المفاجأة حطمت آماله كلها . . لقد خيل إليه انه يسمع صريرها
وهي تنسحق كحشرة تحت مداس الوكيل . . كان واضحاً لديه أنه
اضعف من ان يدخل معركة مع خصمه . ويفكر ان يهرب مع بسمه فرجما
طاوعته على ذلك ولكنه لا يلبث ان يعدل عن رأيه هذا ، فليس سهلاً
أبدأ ان يفلتا من قبضة أبيها . وتبدوله الحياة في الضيعة ذليلة مهانة
لا تطاق أبداً . . فليس أمامه إذن إلا الهرب منها . لاسيما وقد أصبح
أبوه - أحب الناس اليه - وكأنه يضيق به بعد ان تزوج ، ودائماً بينهما
شيء من جفاء .

لم يتم ليلتئذ أبداً . فما أن أسفر الصبح حتى تسلل من مرقدده ،
وخرج من بيت أبيه وراح يركض نحو المدينة دون ان يلتفت إلى ورائه ،
لم يودع بسمه ، ولم يلق نظرة على الأماكن الحبيبة اليه خشية ان
يتخاذل أو يخونه قلبه فيعدل عن عزمه .

وتبتلعه المدينة . . ويضيع في خضمها الواسع كأمثاله من
الكادحين . عشر سنين كاملة ، كان يكافح ليعيش . ويبلغه ذات يوم خبر
توزيع الاراضي فلما تحرى الأمر وجد اسمه بين المستحقين . فعاوده
الحنين الى القرية . لم يمت حبه للأرض رغم مقاومته له ، كان يزداد مع
الايام عنفاً .

ويصل ساحة القرية . كان يتفحص كل ما تقع عيناه عليه . لم
يتغير شيء أبداً خلال عشر سنوات . سوى ان الدلبة ازدادت ضخامة

ويرى جيلاً من الاطفال يلعبون في الساحة كأنه لم يتغير أيضاً ، حفاة ،
قذرين ، يرعى الذباب في وجوههم وعيونهم ، يتسلقون الدلبة كالنسانيس
الصغيرة . والبيوت العتيقة التي تر كها وهي على وشك الانهيار لم تهبط
خلال عشر سنوات مازالت قائمة باعجوبة تسند جدرانها المتداعية
بعضها بعضاً .

ويسمع أصوات الرجال تنبعث من قهوة أبي نواف . ويسرع نحو القهوة .
هل سيعرفونه ياترى ؟ . هل سيتذكرون حسين حمود الذي فر يوماً
من الضيعة طري العود ، ينوء بحمل حقه الكبير وخيخته المريرة ؟ .
لقد عاد إليها اليوم قوي الساعدين يحمل قلباً يفيض حباً وأملًا . . وينظر
من نافذة القهوة . لقد شاخ الرجال الذين تركهم شباباً . ولكن هاماتهم
مرفوعة أكثر منها يوم كانوا شباباً ، وفي عيونهم ألق غريب لم يعده
فيها أبداً ، ألق تنعكس فيه - كما خيل إليه - صور حقول يانعة الخضرة
وبيادر طيبة المواسم . حقاً انهم لسلاطين مخفية .

ويرى أحمد زحلف يتحدث مع علي برهوم وسمعه يقول له :
تعال تتعاون انا وأنت على حفر بئر بين أرضينا . ويسمع آخرين نسي
اسمها يتشاوران على شراء تراكتور . . سيجد هو أيضاً من يتعاون معه
ويشعر بفصحة ، لقد مات أبواه دون ان تتألق عيونهم كالآخرين !
ماتا وهما يشربان الذل كل يوم بحقد مرير صامت ! . . . ويذهب نحو

العين لشرب جرعة ماء يدفع بها غصته ، فيرى أمامه امرأة هزيلة
شاحبة تجر رجلها نحو العين ، لقد ذكرته بأمه ، ويتفرس في وجهها ،
فاذا على خدها الايسر شامة بنية . انها بسمة ! . . . ويجد نفسه يفر
من أمامها راضاً ومختبئ خلف الدلبة ، كان يريد ألا يشوه تلك
الصورة الحلوة التي يحفظها لها في ذاكرته . لاشك ان المسكينة كأمة
تماماً تطرح أطفالاً ما لهم شقاء في الدنيا .

ويقول بأسى مرير : وستموت قبل أن تتألق عيناها !



نمت الصبا

قالت لها جدتها وقد رأتها تصفف شعرها أمام المرآة :

- الى أين أنت ذاهبة؟ .. الى الجامعة؟؟ أم الى عرس؟؟

متى كانت بنات المدارس يصففن الشعور ، ويصقلن الخدود؟! .

كل شيء تغير آخر الزمان ! الى متى تضيقين ثوبك ؟ ألا تخافين الله؟ .

ان بلاء كن يعمنا جميعاً يا بنات المدارس !

لقد حبس الله عنا المطر فازداد الغلاء ، وسلط علينا الجراد ،

والأوبئة ، والأجانب ، ورفع الرحمة من القلوب ، كل ذلك من جرائمكن ،

ولا واحدة منكن تعتبر ! .

ولكن اللوم لا يقع عليك وحدك ، بل على أيك الذي لا يستمع

الى كلامي فيلجأ الى الشدة في تقويمك . أين رجال الأمس من رجال اليوم؟! .

عندما كنت في مثل عمرك رأني أبي مرة أزين أمام المرآة -

وكنت أرملة وأما لطفل - فسجني من شعري ، وصفني صفة اليمه ،

وقال لي بلهجة مازلت أذكر قسوتها الى الآن :

لمن تزيينين بالعيونة؟؟.. أنا ما عندي بنات يمضين الساعات أمام
المرايا ، أفهمت ؟

ومنذ ذلك اليوم ما عرف شعري التصفيف ، ولا وجهي المساحيق..
الله يرحمه كم كان يحسن تربية البنات .. أما أبوك فسيندم حين لا ينفعه
الندم !.. صدق من قال :

هم البنات الى الممات !..

ولكن الصبية وكانت قد تجاوزت الثامنة عشرة لم تكن لتعير
جدتها المعجوز الثرثرة أي التفات ، بل استمرت في هندامها أمام المرآة
بتأن ، ثم تأبطت كتبها وراحت تهبط الدرج ثلاثا ثلاثة ، وهي تدمدم
أغنية شائعة .

ولما صارت في الطريق رأت زمرة من زملائها الطلاب بادلتهم
التحية ، ثم انخرطت بينهم كواحد منهم ، وراحت تسير خفيفة نشيطة
والنسيم يداعب شعرها الكثيف المنسدل على كتفها . بينما وقفت جدتها
في الشرفه ترقبها من بعيد ، والغيظ والغيرة يفوران في قلبها ، ويتقدان
في عينيها . كانت تقارن وهي في وقفها تلك بين حياتها التي عاشتها تحت
عبء التقاليد والقيود ، وبين الحياة الحرة الطليقة التي تعيشها بنات هذا
الجيل الجديد . فاذا هي تقول في نفسها :

أين نحن من بنات اليوم؟! وماذا رأينا من هذه الدنيا؟! !

الله لا يسامحك يا أبي ، ولا يسمح عنك . . لقد دفنت صباي في
خباي !! . وحرمتي كل شيء حتى لذة القراء والكتابة التي كان يتمتع
بها الكثيرات من بنات جبلي . . لا أدري والله ماذا أجداك كل ذلك ؟ .
ثم تسحب كرسيها قريباً منها وتجلس عليه وتروح تفكر . . .
وكان مرأى حفيدتها وصباها الدفاق قد أهاج فيها ذكريات بعيدة ،
فراحت تمر في مخيلتها أيام صباها وشبابها . . أليست ذكريات الصبا
والشباب كنسفات بليلة تمر على أرض موات فاذا هشيمها أخضر ،
وأشوا كها ورد وزنبق ؟

ولكن لم يكن لها من تلك النسفات البليلة سوى نسمة واحدة!..
راحت ترف عليها وهي في جلستها تلك ، فاذا هي في الرابعة عشرة من
عمرها ، ترتدي ازارا أبيض فضفاضاً ، وعلى وجهها نقاب أسود كثيف
جداً لا ترى طريقها من خلاله الا بصعوبة ، تتعثر في حوارى دمشق
الضيقة وقد صحبتها أمها لتشتري لها حذاء جديداً . فلما صارتا في سوق
الحميدية دخلتا دكانا لبيع الاحذية ، ويستقبلها بائع شاب ، يبدو عليه
أنه ابن صاحب الدكان . أخذ يعرض بضاعته بلباقة ، ويعدد محاسنها .
ويعجبها حذاء من اللعاع الاسود .

وتجلس على كرسي لتجربه ، وينحني البائع أمامها ليساعدها على
احتدائه ، بينما كانت أمها مشغولة بانتقاء آخر لنفسها . فاذا البائع الشاب

يمرر يده على ساقها ، ثم يأخذ قدمها بين يديه ويضغطها قليلاً ، ثم يهمس بعذوبة قائلاً :

- سبحان الخلاق !... أنا على ما رأيت في هذه اللذات لم أر أبداً مثل قدميك الصغيرتين الطريبتين .

وتسري فيها رعشة من لمسته الجريئة ، وتضطرب وترتبك ، ثم تسحب رجلها من أمامه وترخي عليها طرف إزارها . ويرفع رأسه ، وعلى فمه ابتسامة حلوة مغرية ويحدق إليها النظر . واني له أن يستشف شيئاً من وراء حجابها الأسود الكثيف ؟!

أما هي فقد رآته تماماً . وجه مستدير اسمر ، وحاجبان أسودان كثيفان ، وعينان براقتان ، وكأن برقعها قد اخترق حجاب وجهها ، واستقر على عينيها فلم تملك ان غضت الطرف وتمتمت :

- الله يخليه لأمه .

عندما خرجت من لدنه متأبطاً حذاءها الجديد كان يشيعها بنظرات تكاد تلتهمها التهاماً ، وراحت هي تسير الى جانب أمها مزهوة منتصبة القامة ، حتى ذلك الحين لم تكن لتدرك أبداً ان لها جمالاً يدعو الى تسبيح الخلاق .

وما تكاد تبعد قليلاً عن الدكان حتى يمر من أمامها شاب له سمات بائع الاحذية تماماً . فاذا يدها تمتد دون وعي منها ، فترفع طرف إزارها كأنها تخشى عليه ان يتسخ من أقدار الطريق ، فتبدو ساقها البديعة التكوين .

ولكن الشاب الغيبي لم ير ما كشف له ! . . . انما رآه شيخ بفيض
الشكل ، كبير الانف ، جاحظ العينين ، صاح بها بصوت أجش ، يشبه
صوت أبيها تماماً :

- أرخي ازارك يا بنت . الله يقصف عمر البنات ، ويجعل المئة منهين

واحدة •

وتشعر كأن دلوأ ساخنأ يصب عليها ، فترخي ازارها وتسير
منكشة خلف أمها حتى تصلا الى البيت .

كان اليوم السابع والعشرين من شهر رجب الفضيل ، فلما صار
الوقت بين الصلاتين ، صلاة المغرب وصلاة العشاء ، قعد أبوها في صدر
الليوان وتحلقت حوله الاسرة بأجمعها ، وراح يتلو عليهم المعراج بصوت
خاشع . فلما وصل الى قوله :

عندما صار النبي ﷺ في السماء الخامسة طلب رؤية جهنم ، فرأى
فيها فيما رأى نساء معلقات من شعورهن فقال :

يا اخي يا جبريل ما خطب هؤلاء النساء المعلقات من شعورهن ؟؟ .
ويجيبه الملاك :

هؤلاء هن اللواتي كن يظهرن فتنتهن الرجال .

ويخيل اليها عندئذ ان اباها يصب اليها نظرة فاحصة . فأخذ
قلبا يضرب بقوة وعنق ، وتذكر كيف داعبها البائع الشاب ، وكيف
تصدت للفتى ، وكيف وبخها الشيخ . . . وتمثل في مخيلتها صورة

النساء المعلقات من شعورهن ، فيمتلكها رعب شديد ، وتستغفر الله في سرها مرات عديدة . ونصلي العشاء ثم نأوي الى فراشها باكراً وتناقش نفسها الحساب وتنتهي المناقشة الى انها لم تقصد الفتنة ابداً علم الله . فالبائع الشاب سبغ الخلاق على بديع صنع الباري عندما رأى جمال ساقها فهل من بأس ياترى اذا سبغ عباد الله الخلاق في عليائه مبدع السوق الرشيقه ، والاقدام الصغيرة الائمة ؟ ؟ .

وعلى أساس هذه الفلسفة التي بدت لها منطقية جداً ، صارت تبجح لنفسها ان تحتال بشق الطرق لتظهر فنتها وجمالها كلما مرت بالسمر ذوي العيون البراقة ، رغم إزارها الفضفاض وتقابها الاسود الكثيف . ويمضي على ذلك أسبوعان ، وإذا أمها تباغتها ذات صباح بسؤال:
- مالي أراك هكذا ساهمة شاردة ، تؤثرين الوحدة ، لانا كلين الا قليلا ، ولانامين الاماما ؟

فترتبك أمامها ، وتخلق لها اعداراً واهية لتصرفها عما يعتدل في نفسها . وتود في صميمها لو تستطيع ان تعترف لها بالواقع . ولكن عما تستطيع ان تحدثها ؟

أعن الشوق الظاميء الى الوجه الاسمر والعينين البراقتين ؟ .
أم عن الرغبة الملحة في اللمسة الجريئة ، والهمسات العذبة ؟
كم تمنى ان ترى متيمها بائع الاحذية مرة ثانية فقد برح بها الوجد حتى لم تعد تستطيع صبراً . فصورته الحلوة ماثلة في مخيلتها

ليل نهار ، وهمساته العذبة مازالت تتردد في مسامعها دائماً ، وربما
لازمها طيفه بعض الليالي حتى الصباح .

ولكن ما من سبيل الى رؤيته الا اذا بلي هذا الخذاء اللعين . .
وتأخذ الخذاء وتعاينه جيداً فتجده متيناً جداً تقدر لبلائه حولاً كاملاً!
حولاً كاملاً ؟ ؟ ياله من أمد بعيد ، انها لن تصبر عليه أبداً .

وتفكر قليلاً ، فاذا اساريرها تهلل ، ثم تقوم مسرعة وتعود
الى أمها هالعة وهي تقول :

- أمي ! أخي الصغير أخذ فرجة خذائي الجديد الى الحديقة ورمى
به الى الساقية فجرقتها المياه . . . ويهطل دمعها مدراراً . . . وتقوم
الام الى صغيرها المتهم البريء الذي لا يحسن النطق تؤدبه وإلى الصبية
الوالهة تكفكف دمعها ، وتمدها بالذهاب غداً إلى البائع نفسه ، عساه
يرضى ان يصنع لها فرجة ثانية ، وإن لم يرض فستشتري لها خذاء آخر .
عندما كانت في طريقها اليه كانت تدغدغها أمان حلوة ، وأحلام
عذاب ، وتقول في نفسها :

- في المرة الماضية سبب الخلاق ، أما هذه المرة فسأدعه يهلل ويكبر .
ولكن لما دخلت الدكان أدركت لأول مرة في حياتها أنها
سيئة الحظ ! . . لأنه لم يكن هناك فقد ذهب لبعض شؤون عمله ،
وحل أبوه محله .

وما من شك أبداً أنها سيئة الحظ ، والى حد بعيد ! ! .

ففي مساء ذلك اليوم بالذات كان أبوها يتناول من الشيخ
البغيض الشكل ، الكبير الأنف ، الجاحظ العينين صرة تحوي مئة
ليرة ذهبية — أم حصان — هي صداق ابنته من ذلك الشيخ الذي
كان قد أخذ بجهاها عندما صادفها في الطريق، ووبخها عندما رفعت طرف
ازارها ، ثم تبعها حتى عرف بيتها ، وجاء في تلك الليلة المشؤومة خاطباً
لها ، راغباً فيها ، فرحب به أبوها ووعدته خيراً ولكنه أبى أن ينصرف
قبل أن يدفع مهرها .

وكان ذلك اليوم آخر العهد بالحب والحبيب ! ! .

أخذت هذه الصورة من الماضي البعيد تمر في مخيلة العجوز
متابعة متلاحقة ، حتى اذا انتهت الى هذه النتيجة الفاشلة اغرورفت
عينها بالدموع ، وزفرت زفرة حرى على شبابها الضائع ، وعلى حياتها
الطويلة التي بدت لها تافهة لا طعم لها . ثم تجرض بريقها ، وتهز رأسها
هزات متتابعة وهي تنظر الى بعيد نظرة تائهة كأنها تقرأ سفر حياتها
الطويل .. ويلوح لها على الشرفه المقابلة شبح صبية فتاة القوام، وتمسح
نظارتها وتعيدها الى عينها وتحملق جيداً ثم تقول :

— يا سلام! هذه جارتنا أم أنطون .. والله حسبتها صبوية بنت عشرين ..

ولولا شالها البنفسجي ما عرفتها .. أم أنطون أكبر مني بكثير ، ومع
ذلك لا يفوتها أبيض ، ولا أحمر ..

كل النساء كذلك الا أنا ! ! ! .

ومالي لا أجرب ولو مرة واحدة ؟؟ . .

وما تكاد هذه الفكرة تخاطر لها ، حتى تسرع الى غرفة حفيدتها وتظل تعالج الادراج الصغيرة التي فيها أدوات الزينة حتى تفتحها ، ويهرها ما ترى فيها من علب وقوارير مختلفة الاشكال والاحجام وأدوات من معدن لامع دقيقة الصنع ، لها مقابض من عاج ، وأصابع أنيقة من أحمر الشفاه ، فيها الفاتح ، والغامق ، والمائل الى الصفرة ، والمائل الى الزرقة . وهذه الآلة التي لها مقبض كالمقص وفي رأسها نصف دائرة ، لقد رأت مرة حفيدتها تعالجها أهدابها فقالت لها هازئة ساخرة :
- أرجو ان تلقطي بؤبؤ عينيك حتى تعمي في سبيل الزينة .
هذه الآلة خطيرة جداً لا سبيل الى استعمالها أبداً . ولم يعجبها من كل مارأت وعاينت سوى قارورة تحتوي سائلاً لزجاً أبيض اللون قلبتها في يدها ثم قالت في نفسها :

- لاشك أنه المحلول الذي طلت به الماشطة وجهي ليلة عرسي . .
ان له لمفعولاً سحرياً . . . وراحت تطلي به وجهها . ثم تنفوس في المرأة وتقول :

- والله اني أحلى من أم أنطون بكثير .

ثم تتناول ايضاً قارورة صغيرة تحتوي سائلاً أحمر براقاً ، أخذت يريقه ، ولما فتحت القارورة صعدت الى أنفها رائحة حادة ، ورغم ذلك أخذت منه قليلاً وطلت به خديها وشفقتها . فاذا صورة بشعة تطالعها

بالمرآة ، أفزعها بشاعتها فراحت تتراجع الى الوراء خطوة خطوة ،
وإذا هي تتعثر بتمثال من رخام - وضعتة حفيدتها قرب مرآتها - فتقع على
الارض ويقع التمثال فوقها فيشج رأسها ويغمى عليها ! .

وفي صبيحة ذلك اليوم بالذات كانت حفيدتها الصبية ذات الثامنة
عشرة تنفث دخان لفاقتها الفاخرة في نادي الفروسية ، وتقول لأصدقاء
لها وصديقات :

- لا أدري والله ماذا حل البارحة بجديتي المسكينة ؟ ! تركتها صباحاً
على أحسن ماتكون ، وقرأت على رأسي ورددتها المعتاد . . ولما عدت
من الجامعة وجدتها قد دخلت غرفتي في غيابي ، على غير عاداتها فكسرت
لي تمثال (فينوس القرن العشرين) الذي نحتته لي صديق مثال على شكلي
تماماً ، فكان وأسفي عليه تحفة فنية نادرة المثال . . ثم عبثت بأدراجي
فأفسدت ترتيبها ، ثم طلت وجهها بزيت الشعر فاستنفدت القارورة الثمينة
كلها ، وطلت خديها بدهان الأظافر حتى أصبح من المتعذر ازالته عن
وجهها المجعد ، وهي تهذي دائماً بشاب تصفه انه أسمر ، وكثيف الحاجبين
براق العينين . . . وكلمها رأيتي تكشف لي عن ساقها المرمتين وتسألني
جادة :

هل رأيت اجمل منها ؟ ؟

ثم تردف قائلة أيضاً :

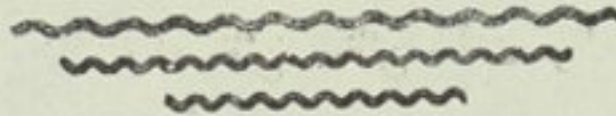
أست انا اجمل من جارتنا أم أنطون؟!

ويقول خبيث من الرفاق :

- من يدري لعل نسمة بليلة من ذكريات الصبا والشباب مرت

البارحة على جدتك فأودت بعقلها!

وتعلو كركرة الصبايا وقهقهة الشباب .



الذكرى

كانت الساعة قد اربت على الثالثة بعد منتصف الليل . وهو ما يزال يتقلب على فراشه ، تنهشه همومه ، وتتناوشه وساوسه وأوهامه . يستجبر النوم بالعقاير فلا يجديه منها الا وهنا في أعصابه وضيقاً في صدره ، وانى له النوم وهو يتخيل هاتين العينين السوداوين اللتين تقدحان شرراً تلاحقانه كيفما التفت ، ان أغمض عينيه أو فتحتها ، في الظلمة أو النور ، تحملقان به دائماً أبداً ، تنظران اليه شرراً ، وكأنهما تتكلمان ، تقولان له :

- أنت وغد .. وغد خائن .. خائن ، أنت موال لاعدائنا ، أنت لست منا ! أنت أشد نكراً علينا من هؤلاء المستعمرين الطغاة . ويعض على شفثيه حتى يكاد يدميها . لم يسبق له أبداً أن وقعت عليه نظرات عينين تنطقان بكل ما يضطرم في أعماق صاحبها من موجدة ، وحقد ، وكبرياء ، كعيني هذا الثائر الشاب الذي سبق صباح هذا اليوم من سجن قلعة دمشق لينفذ به الفرنسيون حكم الاعدام في المرجة .. في مساحة الشهداء ! كان هو يقف بحكم وظيفته كنائب مدير السجن الى

جانب الضابط الفرنسي المشرف على ادارة حبس القلعة ، يراقب معه السجناء ، ومهما نسي في حياته فلن ينسى أبداً تلك اللحظة التي مر فيها الشاب صاحب العينين السوداوين في طريقه الى ساحة الاعدام ، بين صفين من الجنود شاكي السلاح لقد كان يسير وكأنه يراه الآن ، وفي كل لحظة ، شامخ الرأس ، بارز الصدر ، لا تختلج في وجهه عضلة ، يرشق الضابط الفرنسي قبل خروجه بنظرة كلها تحد وتعال ، ويوجه اليه وهو واقف الى جانب الضابط تلك النظرة الشذراء التي حرمته لذيذ النوم هذه الليلة ، بعد أن أيقظت فيه أحاسيس كانت غافية ثم تنهت كما تستيقظ الافاعي عندما يسري فيها الدفء بعد شتاء قارس طويل .

انه ليعجب كيف استطاع ان يكبح جماح نفسه في تلك اللحظة أمام الضابط الفرنسي ، وقد اخذت الرعشة تسري الى جميع اجزاء جسمه فيشعر كأن حمى داهمته ، وكأن الدم يطفر مرة واحدة الى رأسه حتى يكاد ينفر من عينيه وانفه واذنيه .

ورغم كل ذلك يظل متجمداً في مكانه متحاملا على نفسه ، يسمع كلام الضباط الفرنسي ولكنه لا يعي معناه .

لقد أربى على الخامسة والعشرين من سني حياته وهو لا يذكر أبداً ان ليلة نكراء مرت به كهذه الليلة ، حتى ليلة مات أبوه وترك له اعالة هذه الاسرة الوفيرة العدد التي لا يدري كيف يتدبر شؤونها . لقد استطاع في تلك الليلة رغم همومه السود أن يغفو قليلا . أما الآن

فلا سبيل الى النوم أو الراحة، والعينان السوداوان الحاقدتان تلاحقانه
وتحدجانه بتلك النظرة الشرراء !

ماذا كان يقول في نفسه هذا المجاهد الشاب وهو يوجه الى
مواطنه نائب مدير السجن تلك النظرة الحاقدة القاسية !

ويثقل عليه هواء الغرفة ، ويزيد في ثقله حر شهر آب اللافح
فيهب من فراشه ويخرج من غرفة نومه الى فسحة الدار يذرعها جيئة
وذهاباً . عن يمينه غرفة ينام فيها اخوته الستة الصغار ، وعن يساره
غرفة تنام فيها امه واختاه الصبيتان . ويتناهى الى سمعه غطيط بعضهم
وهم في سباتهم العميق فيشعر نحوهم لأول مرة بشيء من الخنق والموجدة
اذ لولا هذا القطيع من الأحياء النائمين الذي أخذ على نفسه رعايته
واطعامه لما وقع في مأزقه هذا ، ولما جفا النوم جفنيه ولما تعذب وشعر
بالذل والصغار ، بل كان التحق بالثورة منذ نشوبها شأن غيره من
رفاقه أبناء هذا الوطن الأحرار ، ولشفي غليله من هؤلاء الفرنسيين
الطغاة . واذا قدر له ووقع في قبضتهم لسار الى ساحة الشرف رافع
الرأس ، متعالياً كمواطنه الشاب المقدم الذي رآه في هذا اليوم
يساق الى ساحة الاعدام .

ولكن من يطعم هؤلاء النيام الحالمين ؟ . أيشعرون ياترى وهم
في يقظتهم بما يقاسي هو في سبيلهم ؟ !

الا يمكن أن يجد حلاً لمشكلته هذه يريحه من تبكيت الضمير؟
أيستطيع أن يصبر على هذه الحال فيرى كل يوم مئات المآسي تمثل
بأبناء وطنه في سجن القلعة بين سمعه وبصره فلا يحرك ساكناً؟ بل
يضطر أحياناً أن يرثي الموظفين الفرنسيين! يا لهذا الواقع المر ما أفضله
وما أصعب احتماله!

كل هذا في سبيل هؤلاء الفارقين في سباتهم العميق من أفراد
عائلته. لقد التحق أكثر رفاقه بالثورة منذ نشوبها، ماذا يقولون
عنه يا ترى؟ وبماذا يتهمونه هو الذي كان يتبجح بالوطنية،
ويقود المظاهرات فلا يفوته موقف واحد من مواقف الأقدام والشجاعة..
لو أن أباه ظل حياً يرعى الأسرة التي خلفها، لكان هو الآن
أحد ثوار الغوطة الذين يتراؤون له من بعيد، وكأنهم في جهادهم نماذج
البطولة والتضحية التي أحبها وأولع بها.

ما أسخفه عندما قبل هذه الوظيفة التي سعى له بها أحد أصدقاء
أبيه بعد موته، هذه الوظيفة التي ملأته غروراً في بادئ الأمر، كان
يشعر أنها كبيرة على فتى في مثل عمره، فهي وظيفة مرموقة وذات راتب
لا بأس به. كم كان يمتلكه الزهو عندما يدخل أو يخرج من باب القلعة
فيقف له الجنود والحراس على طرفي الباب يحيونه كما يحيون ضباطهم،
ولكن منذ نشبت الثورة أخذ يشعر بالذل والصغار فيفض طرفه خزيًا
كلما دخل القلعة، أو خرج منها. لاشك أن مواطنيه يعتبرونه واحداً

من هؤلاء العملاء الموالين للأعداء المشرفين على السجن الرهيب الذي
تمثل به كل يوم افطع الجرائم وأبشعها . وتمتريه رجفة عندما يتذكر انه
سيقف بعد غد موقفاً آخر أشد هولاً من موقفه اليوم . فبعد غد
سيخرج ايضاً من سجن القلعة أربعة ، هم من أبرز رجال الثورة في
طريقهم الى ساحة الشهداء ، حيث سينفذ بهم حكم الاعدام ، فيتأرجحون
على المشانق !

ولا بد له ان يقف الى جانب الضابط الفرنسي يستهدف نظرات
هؤلاء الأبطال بما فيها من لوم وتأنيب وحنق ، هؤلاء الأبطال الذين
دفعوا دماءهم رخيصة في سبيل الحرية .

انه لن ينسى ابداً موقفهم اليوم عندما ودعوا أهلهم . . لقد كان
احدهم يطمئن امه القروية المعجوز وقد اخفى عنها خبر حكمه بالاعدام
فراح يتجلد امامها ماوسعه الجلد ، لله ما أعظمه ! كيف استطاع ان يجبر
الابتسام الى شفثيه ويتكلف الهدوء والاطمئنان ، ويطلب منها ان تتذرع
بالصبر ، كان يردد أمامها بين كل جملة وأخرى :

الله كريم يا أمي . . الله كريم . . .

ثم يوصيها بزوجه وأولاده خيراً ، حتى اذا انتهت الدقائق
المعدودات لزيارة المجنء ، وجاء سجانها ليعود به الى زنزانه ارتفع
نشيج المعجوز وكأن قلبها قد حدثها بهول ما سيحمله اليها الغد الرهيب ،
فأخذت تصرخ من أعماقها بصوت متهدج النبرات :

- الله كريم يا بني . . . الله كريم .

وكأنها أصيبت بنوبة هستيرية ، وراح الحراس يدفعونها بقسوة
وفظاظلة الى خارج السجن . . . فتخرج منه ذليلة مهانة ، مجروحة القلب
. . . وتتالى امثال هذه الصورة المؤلمة التي كان يشهدها كل يوم على مخيلته
فيزيد ذلك في ضيق صدره ، ويشعر كأن انفاسه تكاد تنقطع ، وكأن
كابوساً جاثماً على صدره .

ويهدأ قليلاً عندما يرى أشعة الفجر وقد أخذت تبعث بأنوارها
مع نسائم الصباح الندايا ، ويعود الى غرفة نومه .

وبعد قليل تستيقظ امه لتؤدي صلاة الصبح ، ثم تتبعها الأسرة
ويبدأ الضجيج في البيت . لم يشأ ان يفضي الى واحد منهم بما يلم به .
كان يشعر بصداع أليم لا يستطيع معه ان يكلم أحداً ، أو ان يتناول
شيئاً من طعامه ، وهو يعلم ان أمه وأخته سيرهقنه بأسئلة لا قبل له
بالرد عليها وهو في حالته تلك . فخير له إذن ان يرتدي ألبسته على عجل
وأن ينسل من البيت دون ان يراه أحد ، وان يذهب الى عمله ، الى
قدره المحتوم ، الى مقر عمله البغيض في إدارة السجن .

ويصل الى السجن ، ويدخل غرفة عمله وهو يشعر بالقرف
والاشمئزاز من نفسه ، من كل ما يحيط به . لقد كانت الغرفة خالية فلم
يحن بعد ميعاد مجيء الموظفين . وأخذ يقلب الأوراق التي أمامه ، وفيما

هو يفعل ذلك ساهماً إذ لمست يده ورقة جمد نظره على أسطرها القليلة
فراح يعيد تلاوتها مرات ومرات !

كانت هــ هذه الورقة تبيح تسريح أربعة من السجناء العاديين
المحكومين بجنح يسيرة . ولعلت في ذهنه فكرة خاطفة جعلته يردد
بصوت مسموع :

يالها من سانحة مواتية ، . . فرصة نادرة . . استطيع ان اعمل
شيئاً يريحني مها كان بعده من تضحية . . ان ما أفكر به الآن ممكن
عمله والنجاح فيه ان استطعت ان أسيطر على أعصابي وأحكم تدير الأمور
فاليوم يوم جمعة ومدير السجن لا يأتي الى عمله ، وسأنوب انا عنه في
كثير من الأمور ، كما ان كثيراً من الموظفين لا يداومون على وظائفهم
في مثل هذا اليوم . . فما أيسر علي ان أخرج بموجب هذه الورقة
الزعماء المحكومين بالاعدام بدلاً من السجناء الأربعة العاديين ، ثم أفر
بهم الى الغوطة معقل الثوار وليحدث بعد ذلك ما يحدث ! .

وشعر بشيء من برد العزاء يسري الى نفسه بعد تلك الليلة
المرهقة التي قامى مضضها بالأمس ، وينقلب ما فيه من فتور وقلق ،
واشمزاز الى حماسة ، وحزم ، وعزم ، وراح قلبه يتهيج فيزيد في
اقدامه واندفاعه ، لقد نسي كل شيء ، نسي أسرته الكبيرة وما ينتظرها
من أهوال بين يدي الفرنسيين بعد فراره ثم ما ينتظرها ايضاً من جوع
وتشرد فليس هناك من يعول الأسرة غيره ، ثم ما ينتظره هو من هول
اذا فشلت مغامرته الجريئة ولكنه كان يردد في أعماقه :

أما ان أنجح وأرضي نفسي وما يشور بها ، وأما ان أعدم مع هؤلاء المجاهدين الأربعة . اليس لهم أسر يعيلونها أيضاً؟! . ويرضى ضميره ، وتطمئن نفسه ، فيعمد الى عمله يؤديه كعادته تماماً ، ثابت الجنان هاديء السمات ، لا يبدو على وجهه أي انفعال . ولقد وطد العزم على الماضي بهذه المغامرة الخطرة ولن يثنيه عن عزمه شيء .

كانت أول ورقة قدمها للضابط الفرنسي للتوقيع هي هذه الورقة التي تبيح اطلاق سراح الأربعة من السجناء العاديين . ولما كان وقت الظهيرة انصرف الضابط الفرنسي الى داره ليغيب ثلاث ساعات كما هي عادته . راح هو يفكر ليعد مغامرته الخطرة ، لأنه يتحتم عليه أن ينجزها خلال هذه المدة القصيرة . كان عقله يعمل بنشاط غريب ، واقدم لا يعهده بنفسه أبداً . بدأ أولاً يحوط على صغار موظفي السجن فيشغلهم بأمور تافهة تبعدهم عن غرفة المحكومين بالاعدام ، ثم يرسل الموظف الموكل اليه تدقيق أوراق المسرحيين من السجناء بمهمة خارج السجن . وكان من تقاليد السجن أن يمزل المحكومين بالاعدام في غرفة خاصة تقفل بمفتاح غليظ يعلق على جدار الغرفة التي يشغلها هو ورئيسه الضابط الفرنسي ، ويقف على بابها ديدبان يحرسها دائماً أبداً ، فيتناول هو المفتاح من مكانه في غفلة الديدبان ، ثم يضعه في جيبه ويسير بخطى ثابتة في المر الطويل الذي يؤدي الى الغرفة المعزولة ، ثم يفتح الباب بتؤدة ويدخل الغرفة ، ويفلق بابها وراءه ، وينظر السجناء اليه غير مباليين به ،

ولكن سرعان ما تنقلب لا مبالاتهم اهتماماً عندما يسر اليهم أن يتبعوه
فقد هيا لهم سبل الفرار ، والوقت ضيق جداً ، لا يستطيع أن يشرح
لهم التفاصيل ، كل ما يرجوه منهم هو أن يسروا من خلفه سيراً طبيعياً
لا يلفت النظر ، حتى إذا حالفه التوفيق وخرج بهم من باب السجن
وأوصلهم الى الطريق كان عليهم أن يسروا متفرقين ولكن باتجاه واحد
حتى يلحق بهم بعد هنية ثم يتولج أمرهم ، فهم غرباء عن دمشق لا يعرفون
دروبها ومسالكها ، وما أيسر أن يقبض عليهم مرة ثانية . وتذهلهم
المفاجأة فما ينطقون بكلمة واحدة بل يسرون من خلفه كما أمرهم ،
وكانهم في غيبوبة .

فلما وصل الى باب القلعة سأل الحراس عن الموظف الموكل اليه
أمر تدقيق أوراق المسرحين - وكان قد أرسله في مهمة خارج
السجن - فأجابوه انه لم يعد بعد . فأخذ يبرر بكلام يفهم منه أنه ساخط
عليه ، لأنه تأخر أكثر مما ينبغي ، واصبح هو مضطراً أن يقوم
بوظيفته أثناء غيابه .

ثم يدفع اليهم الورقة الممهورة بامضاء الضابط الفرنسي والتي تبيح
تسريح أربعة سجناء محكومين بجنح يسيرة . ثم يأمرهم أن يفتحوا
الباب أمامهم . فلم يخامر الحراس أدنى شك في أمره .
ويفتحون باب السجن .. ويخرج الأربعة وهم أشد ما يكونون
دهشة من هذه المفاجأة التي ما كانت لتطولها احلامهم ، لا يكادون يصدقون

أنهم حقاً قد أصبحوا في عرض الطريق أحراراً طلقاء ، وأنهم قد تخفلوا
سجنهم الرهيب ، وفروا من الموت بعد أن باتوا بين شذقيه .

ويعود هو الى غرفته فيعلق المفتاح في مكانه . ثم يخرج
مسرعاً ليلحق بهم .

كان مسيره معهم في الطريق مضحكا مخزناً ، مرة يسرع ومرة
يتأد ، تارة يقترب منهم ليسر اليهم بكلمات خاطفة يرجوهم ان يملكوا
أعصابهم فلا يبدو عليهم ما يلفت النظر اليهم ، ثم يتعمد عنهم خشية
أن يراهم من يعرفهم أو يعرفه .

كان قد قرر فيما بينه وبين نفسه أن يذهب بهم الى تاجر معروف ،
له مخزن من خلفه مستودع قريب من سجن القلعة . وكان صاحبه هذا
معروفاً بالوطنية ، والحماسة للثورة ، وطالما تشدق أمام الناس بما تتطلبه
الوطنية من تضحية وبطولة ، ورأى أن يقص عليه القصة ، يرجوه أن
يأوي هؤلاء الرجال الأربعة في مستودعه مدة ساعة فقط ريثما يجد
عربة يشق بسائقها ليدبر معه أمر فرارهم جميعاً الى رحاب الغوطة .

ويزوي الرجل ما بين عينيه وتردد سحنته فيصبح وجهه جامداً
كوجه مراب عتيق . ويقول له بفظاظة :

- ابعده عن دكاني أنت ومن معك! . ان ما تطلبه مني شيء مخيف ،
وراؤه مشنقة وخراب بيت . وأنا لست مستعداً لكل ذلك ! .

ولأول مرة يعرف نائب مدير السجن كيف تميد الأرض تحت
القدمين .. وكيف ينخلع القلب . وكيف يتشقق المارقون بالوطنية .

تمنى لو أن معه سكيناً ليفمدها في صدر هذا الدعي . ولكن لا
سبيل الآن حتى الى توجيه كلمة لوم اليه .. ويكظم غيظه ثم ينصرف
من أمامه وهو يهز رأسه ويقول في نفسه :

سيكون لي شأن مع هذا الخائن في يوم الأيام .

ويتبمه الرجال واجمين مطرقين ، وقد شعروا بحراجة الموقف،
ويتملكهم الرعب كما لم يتملكهم أبداً . ويفكر هو في الامر وقلبه
واجف مضطرب، ويسائل نفسه الى أين يذهب هؤلاء الفارين المحكومين
بالاعدام الذين يسرون خلفه متمهلين على غير هدى ، كأنهم مسلوبى
الارادة .. وعرضت له فكرة لعل حراجة الموقف هي التي هدته اليها :

لم لا يذهب بهم الى الجامع الأموي ؟ ان بيوت الله لا تضيق
بأحد من الناس .. سيدعهم هناك ريثما يدبر عربة يثق بسائقها .

ويتجه نحو الجامع وهم من ورائه، ويشير اليهم ان ينتظروه في
مشهد الحسين ريثما يعود اليهم بعد قليل .

وينطلق مسرعاً الى ساحة المرجة حيث تقف عربات الأجرة .
كان يضرع الى الله ان يجد الاسطى عبد الفتاح في مكانه المهود ، فقد
اعتاد أن يستأجر عربة هذا الحوذى المعجوز كلما احتاج الى عربة

شفقة عليه ، حتى نشبت بينها مودة وصداقة ، انه يعرفه تمام المعرفة
رجل طيب صادق ، واحد من أبناء هذا الشعب البسطاء الحاقدين على
المستعمرين . وكأنه أصبح على مثل اليقين بأن الرجل لن يرفض طلبه ، ولن
يكون كذلك التاجر الوغد الذي يتاجر بالوطنية فيما يتاجر به من سلع .
ولكن المصيبة الكبرى هي الايجد الاسطى عبدالفتاح في مكانه الذي اعتاد
أن يقف فيه . كيف سيأمن غيره على هذه المهمة الخطرة ؟ ويسرع
الخطى ويبدو له سوق الحميدية طويلا لا آخر له ، ولما يشرف على ساحة
الشهداء يلوح له صف العربات المتحلق حول النصب التذكارى القائم في
وسط الساحة فيتفحصها من بعيد ، وتبسط أساريره لما يلمح العربية
المهترئة وقد جثم على كرسي القيادة فيها صاحبه المعجوز ، كومة بؤس
سوداء ، محي القامة ، قد انفرز رأسه بين كتفيه ، ينتظر رزقه بملالة
وسأم . ويقفز الى العربية ويستوي على مقعدها الخلفي ، ويلتفت اليه
الحوذى مرحبا به ، فيقول له باقتضاب: خذني الى مكان خال ، أريد أن
أتحدث اليك بكلمتين هامتين . ويجب السائق دهشاً :

- تريد ان تتحدث إليّ ؟؟ ! أمرك يايبك .

ويلسع بسوطه ظهري الجوادين ويوجهها نحو طريق دمر وبعد
قليل يوقف العربية تحت صفصافة كثيفة الاغصان ، ثم يلتفت الى الراكب
فيها فيشير اليه هكذا بأن يأتي الى جانبه ، ويمثل السائق لأمر زبونه
والدهشة تملأه ، لأنه لايجد تفسيراً لما يطلبه منه ، ما عساه يريد ان يفعل
ياترى ؟

ولما جلس الى جانبه قال له بصوت خافت وعلى وجهه علائم الجذ :

- هل علمت يا أسطى عبد الفتاح ان الفرنسيين قد حكموا بالاعدام على مصطفى الخليلي من زعماء الثورة في حوران ، وعلى فندي أبي ياغي من ثوار جبل الدروز ، وعلى علي بصلة ، وأحمد المحمود من زعماء الثورة في قرية داريا ؟ ! .

ويجيب السائق المعجوز والدهشة لاتفارقه :

-ومن لم يعلم بذلك ؟ . . البلد كلها مضطربة من أجلهم ! .

-غداً سينفذ بهم حكم الاعدام في ساحة الشهداء ! .

- يعملوها الكلاب ! . . الله يخرب بيتهم . . ثم يرفع يديه إلى السماء ويقول : الله يهد جبرك يافرنسا ! .

ويقبض نائب مدير السجن على يد الحوزي المعجوز ويحذق الى عينيه ثم يقول له : انتبه لكلامي ،

لقد استطعت بحكم وظيفتي في السجن ان أخرجهم منه قبل ساعة وهم الآن في الجامع الأموي ، وزيد عربية تنقلنا إلى الغوطة قبل مضي ساعة وإلا انكشفتنا ، . . وانت تعرف ماسيؤول اليه أمرنا . فهل أنت على استعداد لمساعدتنا ؟

-الله يخليك يايبك . . وهذه تحتاج الى سؤال وجواب ؟ ؟ من عيني الاثنتين ، هيا فالوقت ضيق . .

- سادفك لك قدر ماتريد .

-أخ . . . طعننتني ! . . الله يسامحك . . . اتريدني ان آخذ أجرة
على واجب أتحرق دائها على أدائه ؟ . . . انا والله العظيم اتمنى دائها ان أجد
فرصة أخدم بها أمتي وبلادتي وقد جاءت الآن على رجليها فأنا أسعد الناس ،
والله لو في قوة وشباب لالتحقت بالثورة من زمان ، ولتركت العيال
على الله ، رب العيال يدبر العيال ، ولكن العين بصيره ، واليد قصيره !
ماذا يفعل الثوار بمجوز مثلي ؟ . البركة فيكم يا شباب . .

هيا . . أي طريق تريدني ان أسلك ؟ ، دمشق كما تعلم أصبحت
معزولة عن الغوطة . في كل طريق استحكام وعسكر ، حتى حي
المهاجرين أصبح معزولاً أيضاً .

-لا عليك أنت، انا سادبر الأمر . سر بنا أولاً الى الجامع الأموي

لنأتي بهم .

- انا تحت أمرك . ويقوم الأسطى عبد الفتاح ويجلس أمام مقود
العربة وتبدو قامته منتصبه متحديه كأنه يقود معركة ثم يشرع سوطه
ويلوح به في الهواء ثم يهوي به على ظهر الجوادين صارخاً من أعماقه :

-ياستار، يا كريم.

وتسرع العربة نحو الجامع الأموي ، وماهي إلا دقائق قليلة حتى
كان الثوار الأربعة قد انحشروا في العربة مع منقذهم نائب مدير السجن ،

وكان هذا وحده يدرك انه ما يزال أمامهم عقبة كبرى اذا استطاعوا أن يتخطوها فقد كتب لهم النجاح .

كانت آمن الطرق حينئذ الى الغوطة هي طريق حيي الا كراد، ولا بد لمن يسلكها ان يمر أولاً بمخفر الجسر الابيض القائم على سفح قاسيون ، وكان هذا المخفر اذ ذاك هو الحد القائم بين مدينة دمشق ، ومنطقة الثورة قد حول الى استحكام اشبه ما يكون بحصن مسلح أقيمت فيه المتاريس ، ونصبت على أطرافه المدافع الرشاشة ، ووقف على منافذ الطريقين اللذين يتصلان به حرس فرنسيون ، وسنغال مسلحون يفتشون المارة ويطالبونهم إذا - اشتبهوا بهم - أن يبرزوا أوراقهم التي تثبت شخصياتهم . وكان نائب مدير السجن يمر كل يوم بهذا المخفر ، عندما يغادر داره القائمة في أقصى الجسر ذاهباً الى عمله في كل صباح ، أو عندما يعود اليها في كل عشية حتى عرفه الحراس وعرفوا أنه من موظفي الحكومة وقامت بينه وبينهم مودة ، والفة . فكان يتحدث إليهم بالفرنسية وبيادهم التحية كلما مر بهم .

ورأوه هذه المرة يجتاز الطريق في عربة ومعه رجال قال لهم أنهم مدعوون عنده ، فلم يترددوا في أن يفسحوا الطريق له ولضيوفه شأنهم معه في كل مرة .

وتمر العربة بسلام ، وتبدأ أعصاب راكبيها تسترخي قليلاً قليلاً بعد ان كانت كأوتار مشدودة .

ولما اجتازت منطقة الخطر الاخيرة كان بطبل قصتنا نائب مدير
السجن السيد زكريا الداغستاني يخط رقبتة ليلقي بنظرة أخيرة على داره
القائمة على الحد الاقصى من الجسر ، من يدري ربما لا يعود اليها ، ولا
ينعم بدفنها ابداً ، قد يدفن في أرض الغوطة مع من يدفن كل يوم من
المجاهدين .

وتجول في عينيه دمعان عندما يتصور أمه الطيبة ، وأختيه
اليافتين ، وإخوته الصغار وهم ينتظرون أوبته هذه الليلة دون جدوى ،
ثم كيف سيقتحم عليهم الفرنسيون دارهم ليسألوهم عن رب أسرتهم أين
ولى؟؟؟ . . . وكيف سيحملون العذاب والاهانة ، والجوع والتشرد!! .
ترى هل ستغفر له أمه فعلته هذه ؟؟ .

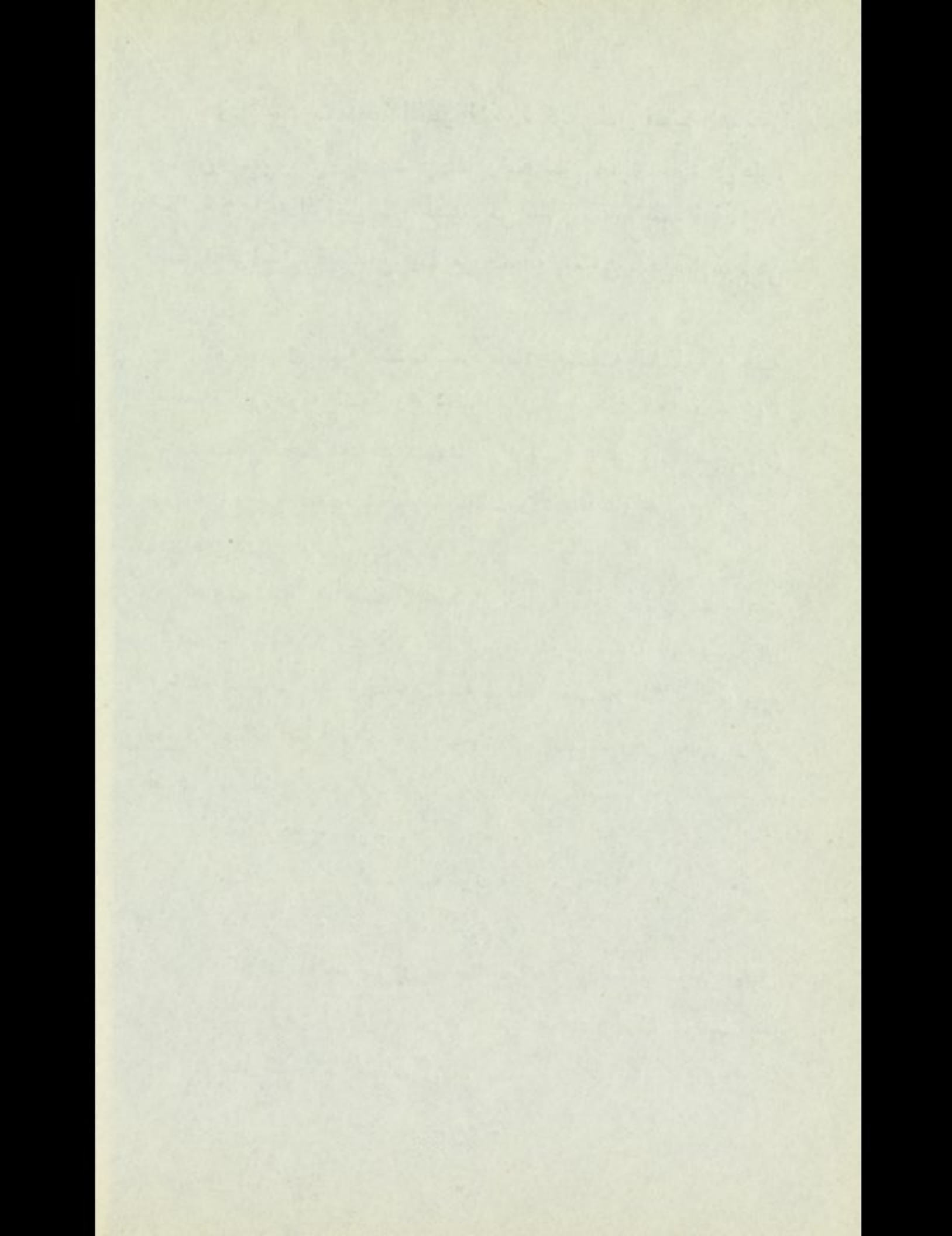
ولم يشعر أنه أحبهم كما يحبهم في تلك اللحظة ، لقد عرف ساعتها
كيف يذوب القلب لوعة وحنانا . وتنحدر الدمعتان الساختتان على
وجنتيه فيمسحها بيده ، ثم يجد نفسه مدفوعاً بغير ارادته لأن يردد
بصوت عال ماسمه البارحة في السجن من تلك القروية العجوز وهي
تودع ابنها المائل أمامه الآن فتقول له وتردد ملء صوتها :

الله كريم . . . الله كريم .

ويردد الرجال الأربعة معه دون وعي منهم :

الله كريم . . . الله كريم .

وتتلاشى الاصوات بين جلجلة العربية ، وصوت حوافر الخيل
وهي تنهب الارض في طريقها الى فراديس الغوطة وجناتها ، حيث كان
التراب يحيل كل يوم بالدم الذكي .



خَيْطُ الْعَنْكَبُوتِ

رهجة أحلى بنات ضيعتنا
حمرة خديها لا ترى على التفاح
لون عينيها كخضرة الربيع في حقولنا
شفتاها حبتنا كرز على غصن ريان
ضفائرها سنابل قمح ناضجة في موسم خير
وهكذا كان شباب القرية يفتنون بوصف رهجة كلما كان ابن
عمها حمدان غائباً عنهم . وما أكثر ما كان يئيب حمدان ساعياً وراء
رزقه الضيق في القرى المجاورة أو في المدينة .
وذات أصيل كان الشباب مجتمعين حول العين يتفرجون على
بنات الضيعة وهن يملأن جرارهن - على جري العادة في القرى - إذ
تقبل رهجة تحمل جرتها على كتفها وتهادي في دلال ، فتستأثر وحدها
بنظرات الشباب اللاهبة ، وتتيه على لداتها ، فتشتعل الغيرة في قلوبهن جميعاً .
لم تكن - وهي التي لم تتعد السادسة عشرة بعد - قد أعطت
قلبها لواحد منهم . كان محلوا لها ان تخص كل واحد منهم بابتسامة أو نظرة

توهمه انه وحده المفضل لديها ، فينتهز الفرصة ليداعبها بكلمة غزل ،
أو بإشارة ذات معنى لا يدرك معناها غيرك .

وإذا حمدان يظهر فجأة على غير انتظار منهم ، فيكفون عن النظر
الى رهجة ، وعن التحدث عنها فيما بينهم ، فليس التورط مع حمدان
بالامر السهل .

وكان حمدان يبدو يومئذ متجهماً الوجه ، مشغول البال ، وكأنه
يحبس كلاماً في فمه ، ويتحين فرصة مواتية ليجهر به . فلما انصرفت
آخر بنت عن العين ، وهم الشباب بالرواح ، صرخ فيهم حمدان بلهجة
لا تخلو من التهديد والوعيد :

— اسمعوا يا شباب .

ويتشد الشباب قليلاً ، ويسأل بعضهم بعضاً :

— وماذا يريد حمدان منا ؟

وإذا هو يتوسطهم ، وييده خيزرانة ثخينة يلواح بها عابثاً ويقول :

— أنا غداً مطلوب الى المسكرية . . وسأغيب عن الضيعة سنتين كما

تعلمون ، فوالله العظيم كل من سولته نفسه ان يغازل بنت عمي رهجة ،

أو يحاول أن يؤثر على عقل عمي الشيخ ليخطبها منه ، فليحمل كفته

تحت أبطه من اليوم .

رهجة بنت عمي . . أنا أحق الناس بها ، ولي حق ان أخطفها من

جلوة عرسها فليعرف كل واحد منكم حده .

ثم يخلق بهم واحداً واحداً بنظرات متحدية ، جعلتهم ينكمشون
على أنفسهم ولا يحرون جواباً .

الا احمد سمور الذي انبرى من بينهم وقال :

— هذا شي معروف يا حمدان ، طمن بالك . . . ولو ! . هل ماتت النخوة فينا ؟
وينصرف الشباب مقهورين . ولكن من يستطيع ان يعترض ؟
والضيعة كلها تعرف ان حمدان اذا قال فعل . وعدا ذلك فقد نطق
الرجل بالحق ، فالعرف والتقاليد الموروثة تعطي ابن العم حقاً في الزواج
من بنت عمه ، وما كان لأبي رهجة الشيخ علي إمام الجامع ، وهو
الحريص على تلك التقاليد والبقاء عليها ان يخل بها ، أو يكسف ابن
أخيه امام الناس ، ولو كان في صميمه غير راض عن هذه الخطبة لأن
ابن أخيه حمدان فقير ، لا يعتمد في أمور معاشه الا على ساعديه القويين .
أما أحمد سمور الذي انبرى وحده من بين الشباب جميعهم ، وطمان
حمدان على بنت عمه في أثناء غيابها في الجندية ، كان أكثر الشباب افتتافاً برهجة
والتباعد عنها . لقد كان أقرب جار الى بيتها ، لا يغمض عينيه كل يوم
الا على خيالها ، ولا يفتحها الا عندما يسمع صوتها المرح وهي تنادي
دجاجاتها وتنثر لها الحب ، فكان يقفز الى السطيحة التي تشرف على
بيت رهجة ، ويبادلها ، تحية الصباح قبل أي أنسان ، ويملا عينيه من جمالها .
عشقها حين كان فتى يافعاً ، وهي طفلة صغيرة ماتفقه شيئاً ، فكان
يلعبها في البيدر ، ويقطف لها الثمرة الشهية ولو كانت في اعلى الشجرة ،
ويحملها على كتفيه كل مساء عندما يعودون من الحقل الى البيت ، يعني لها العنابا

والميجانا. ولما كبرت قليلا صار لا يرقص الدبكة في الافراح والاعياد الا معها..
وكان يقعد لصقها في أمسيات الشتاء عندما يسمر اهلها حول الموقد .
ولكن أباه صرفه عنها ذات يوم بالحسنى حين قال له :
- اصبحت يا بني شابا ، ولا يجوز لك ان تلعب مع البنات او تدخل بيوت
الناس دون استئذانهم .

ولما حاول بعد ذلك ان يكلمها في غفلة عن أبيها أشاحت وجهها
عنه ، فأدرك ان اباه ، وهو المعروف بتزمته وصرامته ، قد حرم عليها
التحدث معه كما كان شأنها دائما . ولما كانت تخشى أباه ، وترهبه كثيراً ،
كان لا بد لها ان تتصرف معه كما تصرف الآن .

ويكنم احمد سمور حبه في قلبه وراح يوم نفسه بأن رهجة
تجبه هو وحده ، دون غيره من شباب الضيعة ، لأنه أليف طفولتها ،
ورفيق صباها ، وأقرب الجيران اليها ، وان اشاحت اليوم عنه فلأنها
لا تزال صغيرة ماتفقه من الحب شيئاً ، فمتى كبرت واشتعلت جذوة الحب
في قلبها ، فلا بد لها ان تتحين الفرص لمبادلتة ذلك الحب مهما كان أبوها
حذراً في مراقبتها .

ويسرف احمد سمور في أحلامه فيخادع نفسه وبطمئنتها ، ويمنيها
بالأمنيات الحلوة .

ولكن الذي لم يكن بالحسبان ابدأ هو ابن عمها حمدان هذا الذي
كان يغيب عن القرية ساعياً وراء رزقه شهوراً تلو شهور ، واذا عاد اليها

لا يمكث فيها الا يوماً او بعض يوم ثم يعود الى غيابه حتى كاد ينساه أهل
القرية . . . فلما اينعت رهجة كشمرة شبيهة جاء يقطفها ويحرمه منها .

ولكن احمد سمور لم ييأس . . . ومتى كان اليأس يدخل قلوب
العشاق ؟؟ لا بد لهم دائماً ان يتعلقوا بخيط أمل ، ولو كان أوهى من
خيط العنكبوت ، وهكذا فعل أحمد سمور ، كان يردد في نفسه ويقول:

من يدري ماذا يحدث في سنتين ؟؟

بعض الناس قد لا يعودون من الجندية أبداً .

وتمر الأيام تليها الشهور وخيط العنكبوت يتأرجح في قلب أحمد
سمور فيبدل خيته أملاً ، ويأسه رجاءً .

ويصبح الشيخ علي احرص ما يكون على مراقبة فتاته ، فلا يدعها
تغيب عنه طرفة عين ، حتى حرّم عليها الذهاب الى العين كل أصيل لتملأ
الجرة كغيرها من بنات الضيعة كي يبعدها عن عيون الشباب والذهاب
الى العين هو السبيل الوحيد للتسلية والترفيه عند بنات القرى .
ويظن أهل القرية ان الشيخ ما فعل ذلك الا حفاظاً على عهد ابن
اخيه حمدان .

لكن بعض الخبثاء منهم كانوا يلاحظون ان الشيخ يكثر من
الذهاب الى دمشق صحبة ابنته فينبيان فيها بضعة ايام ثم يعودان وفي
كل مرة كانت رهجة تحمل معها شيئاً جديداً ، ثوباً من مخمل ثمين ،
أو حذاءً لماعاً ، او سواراً ذهبياً مما هو فوق طاقة الشيخ . . . ويتسرب

الشك الى نفوسهم فيقدرون ان هناك امرأ يدبر في بيت الشيخ ، يحوطه
أهل البيت بالكتمان الشديد ، وكم حاولوا ان يستجروا الكلام من فم
زوجة الشيخ ولكنها كانت رغم غباوتها المعروفة بها أدهى من أن تورط .
ويصبحون ذات يوم على خبر تقوم له الضيعة ولا تقعد أبداً . .
ان الشيخ علي إمام الجامع سيهجر الضيعة غداً الى غير رجعة . .
فقد غدر الشيخ بابن أخيه حين رضي ان بخطب ابنته من احد تجار
دمشق الأثرياء وسيسكن معها في دمشق عندما يزوجها منه .

وجن شباب القرية غيظاً . . لقد رضوا ان يتزوجها ابن عمها
حمدان لأن العرف والتقاليد يفرضان ذلك اما ان يأتي غريب عن القرية
فينتشلها من بينهم ويحرمهم من رؤيتها طول العمر فهذا مالا يرضون به
أبداً .

وكان أحمد سمور أشد الشباب غيظاً وحنقاً وموجدة . . . جمع
الشباب حوله وقال لهم :

— اذا غاب عنا حمدان هل يجوز ان نسكت عن حقه يا شباب ؟ ؟
هل ماتت المنخوة فينا ؟ ؟ .

ويسأله سائل منهم :

— وماذا تريدنا ان نفعل ؟ أليس الشيخ حراً ؟ يزوج ابنته بمن يشاء

ومتى يشاء ؟

ويرد عليه بنزق :

- لا يا أخي ليس هو حراً أبداً . . . هذه عاداتنا مشي عليها
آباؤنا وأجدادنا ونحن لن نحميد عنها شعرة . . . سنخطف رهجة .

- نخطف رهجة ؟ ؟ نخطف رهجة ؟ ردد الشباب دهشين

مستغربين !! .

ويقول أحمد سمور بتحد :

- نعم نخطفها . . . وماذا يحدث اذا خطفناها ؟ وماذا يستطيع ان
يفعل أبوها الهرم الغدار ؟ . . . سنخطفها ونضعها في بيت مافيه رجال ،
عند المعجوز أم ديب مثلاً ، ثم نحرس البيت كلنا ولا ندعها تبرحه أبداً
حتى نرسل الى حمدان من يخبره وهو يعرف كيف يدبر أمره مع عمه .

ويتفكرون قليلاً ، ثم يستجيبون لرأيه مرة واحدة دون اخذ
أورد . لقد صادف رأيه هوى في نفوسهم جميعاً جعلهم يركضون نحو
بيت الشيخ ، وفي أعماق كل واحد منهم حافظ يحفزه على الركض ،
لا يدري ما هو ولكنه يوم نفسه ويقنمها أنه نصره الحق على الباطل ،
والنخوة التي لامتوت أبداً ، كما يقول أحمد سمور .

ويقتحمون دار الشيخ على أهلها ، فاذا رأوا الشيخ راحوا يعنفونه ،
ويؤنبونه على غدره بابن أخيه وتقضه عهده .

أما احمد سمور فما ينطق بكلمة واحدة ، كان همه الوحيد هو أن
يخطف رهجة .

وينقضّ عليها كما ينقض نسر على فريسته ، ثم يحملها على ساعديه
القويين كما كان يحملها في الحقل وهي طفلة صغيرة . وكانت رهجة
أضعف من أن تقاوم قوته المسعورة بعد أن أذهلتها المفاجأة فاستسلمت
إليه دون أي مقاومة .

ويخرج أحمد سمور من بيت الشيخ وهو يعدو بحمله الثمين ويضم
الحبيبة إلى صدره فما ترتوي نفسه الالهفانة ، أما فمه فكان يكيل لها
السباب :

— ياغادرة ! . . ياخائنة ! . . غرك المال خنت عهد الحب والوفاء! ..
أما نحن فما ماتت النخوة فينا .

ويشدها إلى صدره حتى يكسر أضلاعها وهو يردد : فهمت ؟ ؟ . .
ما ماتت النخوة فينا . . سنحبسك حتى يعود حمدان ويعرف شغلهم معك .
وفي أعمافه كان يتأرجح خيط العنكبوت :
« بعض الناس قد لا يعودون من الجندية أبداً »

مائية قرية العين

كانت دارة أنيقة تلك التي يسكنها المسيو (غوليه) وزوجه ،
تحتضنها اشجار يانعة الخضرة ، متمرده الاغصان ، وتنبت أمامها
حديقة واسعة الاطراف بعيدة المدى وكأنها مزرعة كبيرة تمتد حتى
الشاطئ العاجي الذي تنتهي عنده المدينة البيضاء ، مدينة الجزائر .

وكان في أقصى هذه الحديقة الواسعة كوخ رث المنظر ضيق
الاطراف يسكنه الناطور (عبد الجبار) وزوجه الصبية (زينب) .

كان الليل يبدو وحشي الظلمة في جوانب الحديقة الواسعة ،
يزيد في وحشيته صدى همهمة الاشجار الضخمة عندما يختلط بهدير
الأمواج على الشاطئ القريب .

وكانت الأنوار التي تشع من الدارة الأنيقة ترسم حولها هالة
لا تلبث أن تتلاشى قبل أن تصل الى الكوخ الكئيب المرتقي في العتمة .

وكان ما كن الكوخ يقعد في تلك الليلة صامتاً حزيناً ينفث
باستمرار دخان تبغ الرخيص كأنه يحاول أن ينفث همومه عن صدره ،

ولكنها لا تلبث أن تعود وتتراكم فوق رأسه ، سحابة سوداء تهبط عليه ببطء حتى تكاد تخنق انفاسه .

كان الضوء الهزيل المنبعث من قنديل الزيت المعلق على الجدار يلقي على وجه (عبد الجبار) ظلاً باهتاً فتبدو مسخنته مربدة ، رمادية اللون ، كثيرة التجاعيد ، كقطعة طين شققها الجفاف . أما عيناه السكيلتان فكانتا متجهتين الى زاوية الغرفة ترقبان بكثير من الهلع زوجه (زينب) التي تكومت على نفسها حتى بدت له كصورة ثياب عتيقة ممزقة ، واخفت وجهها في وسادة وراحت تبكي بلا انقطاع . كان صوتها يملو أحياناً حتى يصبح عويلاً ثم يعود فيخفت حتى يصبح نشيجاً مريراً تقطعه حشرات وزفرات . كان (عبد الجبار) ينظر اليها بأسى وهو يتحرى عن كلمة يواسيها بها ، أو على الأقل يشعرها بمشاركتة لها في حزنها ، ولكن شيئاً ما كان يلجم لسانه . كان ينتابه منها في تلك الليلة خوف شديد لم يشعر به تجاه أي انسان مدى حياته وقد تجاوز الستين من العمر ، كاد يمضي الليل وزينب لم يشح دمعها .

قال لها أخيراً بصوت خفيض مرتجف حاول جهده أن يكون

رفيقاً رحيماً :

- ارحمني نفسك يا زينب ، كفاك بكاء .! اتنا لله واتنا اليه راجعون . هذه ارادة الله . لقد قتل من قبل أبوك في الجهاد ، وأخوك الكبير ، وابن عمك . وكثيرون غيرهم من أبناء هذا البلد فلم أرك تبكين كما تبكين اليوم على أخيك احمد .

وتكف المرأة عن البكاء وهي تصفي اليه ، وقسماتها تضطرب ،
وعيناها تقدح شرراً ، وكأنها تتحفز للكلام بعد كل جملة كان ينطقها
ثم تقاطعه بصوت مبجوح جاف :

- ولكن احمد مات في السجن !! أتدري أنت يا من تعمل عند
الفرنسيين ما معنى مات في السجن ؟؟ يعني مات من التعذيب والتشنيع .
ثلاث سنوات كاملات وهذا الصغير يقاوم قساوة هؤلاء الجناة دون أن يلين لهم .
ترى أي ميتة اختاروها لك يا أخي يا حبيبي ؟ !

أمت تحت ضرب الشياطين ولذع النار ؟ أم مت معلقا من قدميك
بعد أن زرعوا أظافرك ، ومثلوا عينيك ؟

وتتقدم من عبد الجبار ثم تهزه بعنف وهي تقول له :

- أتحسب أنني كنت أرضى أن أبقى هنا الى جانبك أعمل في هذه
الحديقة ومايلها من حقول أخدم الفرنسيين لو لم يعدني (غوليه) بأنه
سيسمى ليخرج أخي من السجن . سيدك (غوليه) ، هذا الرجل
اللئيم الوضع الخداع ، الذي تسميه أنت بالرجل الطيب ، وتصديق أنه
يعطف على قضيتنا ، قضية الجزائر . كان الخنزير يقول لي كلما رأيته :

بعد أسبوع فقط سيخرج أخوك من السجن . .

ومضت ثلاث سنوات ، يعلم الله كم عذبتني الانتظار ، كنت أتعلق
بخيطة واه من الأمل ، أوهي من خيط العنكبوت ، وأخشى دائما أن

ينقطع ، فأسمى جهدي لارضاء (غوليه) وزوجه العاتية . واسكنه لم
يف بما وعد . ويقيني انه لم يفعل من أجل أخي شيئاً ، وكان باستطاعته
أن يفعل كل شيء . كان اللئيم يضحك عليّ ! رحمة الله عليك يا أبي !
كنت أعرف بهؤلاء الفرنسيين الخائنين منا جميعاً . كان يقول لي دائماً :

تعالى معنا ، دعي أحمد لرحمة الله ، مثله كثيرون في السجون .
ان كان له عمر سيخرج من السجن عندما يخرج الفرنسيون من الجزائر .
لا تصدقني الفرنسيين أبداً ، ولا تهدي كرامتك .

لم أطاوعه ، رضيت بالذل والعار ، رضيت أن أبقى هنا من أجل
أن أنقذ أحمد . . . يا لحقارتي . . . لن يغفر لي احمد فعلتي هذه أبداً .

أما الآن وقد مات احمد فأنا حرة طليقة من كل ما قيدت به نفسي .
سأحارب مع من يحاربون ، فأما تنتصر ، واما تموت كرماء كما مات غيرنا .
أشعر اني أستطيع أن أفعل كل شيء مهما يكن صعباً . ولكني لم أعد
أستطيع أن أرى فرنسا واحداً يدب على أرض الجزائر .

كفاني كبتا ، وحصراً وتمويهاً وخداعاً ، يا إلهي ! كيف أستطعت
أن أصبر الآن ؟ .

أبقى أنت هنا ان شئت ، اخدم سيدك الرجل الطيب — كما تسميه —
لقد خدمته عشرين سنة ! . وكان من جراء ذلك ان وقعت مرة من أعلى
شجرة أرغمك هو على الصعود الى قمته لتشذب اغصانه — ا ف وقعت ،

وتهشمت يدك ، وقطعت ، واصبحت عاجزاً لا تصلح الا ناظوراً ككلب
عجوز !. وماذا جنينا بعد هذا كله ؟ غير هذه الاسمال البالية التي
تغطيني وتغطيك ؟

وهذا الكوخ الحقير الذي ناوي اليه ، ومتى شاؤوا طردونا منه !
ان كوخ الكلاب خير منه ، وزريبة الدواب أصلح من سكنتنا ! .
ورغم كل ذلك مازلت تصدق أن غوليه يعطف على قضية الجزائر !
ومازلت تسميه بالرجل الطيب ؟ وتقول عنه انه غير راض عن تصرف
حكومته ، وأبناء قومه . ما أعباك ! اذا كان ما تقوله صحيحاً ، فلماذا
ما برح كل يوم يتدرب وزوجه على اطلاق النار ، واصابة الهدف ؟
اليس من أجل قتالنا ؟ قم معي الآن وانظر من الكوة الصغيره التي
تطل على القبولأريك كيف كدمت فيه صناديق الذخائر والمتفجرات ، كانوا
يأتون بها غفلة منا ، وقد رأيتهم مرة يمدون بها أبناء جنسهم . مستقول لي
كما قلت مراراً : انك رجل عاجز لا تصلح لحمل السلاح ، واذا التحقت
بالثورة . ستكون عالة على الآخرين . أما أنا فلست مثلك ، انني قوية
أستطيع ان اتحمل كل شيء .

وتنحني على الأرض وترفع صرة صغيرة تلقىها على كتفها كانت قد
جمعت فيها كل اشياؤها . وتفتح الباب وتسير مهرولة نحو الطريق
دون أن تلتفت اليه .

ويظل هو في مكانه مسمرأ لا يتحرك وقد غاص رأسه بين كتفيه
وبدا عليه انكسار حزين ذليل .

كان الدهول قد تملكه عندما رأى امرأته التي عهد لها مستكينة
ضعيفة ، تنقلب مرة واحدة الى نائرة قوية لا يخيفها شيء ، توجه اليه
الاهانة تلو الاهانة فلا يستطيع أن يرفع رأسه أمامها ، أو يوجه اليها
كلمة اعتذار واحدة . وراحت هي تمدو في الحديقة .

كانت نسفات الصباح الندية تداعب وجعها ، فيغمرها شعور لذيد
غريب لا عهد لها به . هو شعور الحرية والانطلاق .

راحت تشعر بذلك هائلة سعيدة رغم ما بها من حزن وألم . كأن
السنين الطويلة المليئة بالكبت والذل قد ازيمحت في هذه اللحظة عن
كاهليها ، فشعرت بكيانها ، واهتدت الى نفسها الضائعة ، انها الآن
انسان كامل ، يستطيع أن يتصرف حسب مشيئته ، ويستطيع أن يقرر
مصيره . لقد تحررت ، حتى من عبد الجبار . وأخذت تمدو بخفة ونشاط
لا تعهد لها في نفسها . وفتحت باب الحديقة ، والقت على الدار الأنيقة الفخمة
القائمة في وسط الحديقة الواسعة نظرة كلها حقد واحتقار . وراحت
تمدو في الطريق ، كانت المسكينة تجهل أن باب الحديقة متصل
بسلك كهربائي فيه جرس يرن في غرفة نوم السيد (غوليه) كلما
فتح باب الحديقة امعانا بالحديقة والحذر .

ويقفز الفرنسي وزوجه من سريرها ويبد كل منها بندقية كانت
دائما على متناول ايديها ، وينظران من النافذة ، وتقول الزوجة :

- هذه هي زينب تحمل صرة وتمدو في الطريق ، الى أين تذهب
ولما تشرق الشمس ؟

ويقول الزوج :

- ستلتحق اللعينة بالثوار حتما .. لأن اخاها قد مات البارحة في
السجن ، كانت الغيبة تطلب مني دائما أن أتوسط لاجراج هذا الثائر
المتورد بحجة أنه صغير السن لم يتجاوز الخامسة عشرة ، سأقتلها قبل
أن تصل إلى مأربها .
وتقول الزوجة :

- دعها لي ، دعني اجرب مقدرتي في الرماية .
ثم تقول وهي تصوب بندقيتها :

- كانت الشقية خادمة ممتازة ، أمينة ، ونشيطة ، خدمتنا عشر
سنوات ، ولكنني لا أدري لم كنت أتوجس منها خيفة ، كأنها تكبت
شيئا في نفسها . وتطلق بندقيتها . وتلتفت زينب نحو الصوت ثم
تتابع عدوها بسرعة أكثر ..

ويقفز عبد الجبار من كوخه عندما يسمع أزيز الرصاص ، ويقرب
من حاجز الحديقة ، وينظر الى الطريق ، ويلوح له شبح زينب من
بعيد فيتسم قليلا عندما يطمئن عليها . ولكن طلقة ثانية راح يوزها
فوق رأسه ، ويرى شبح زينب يترنح ذات اليمين وذات اليسار ثم
يهوي الى الأرض ! . ويهوي معه قلب عبد الجبار ! ثم يسمع ضحكة

عالية أطلققتها حنجرة الرجل الذي كان يسميه بالطيب ، سمعها وكأنها
قهقهة قرد في غابة كثيفة موحشة .

ويذهل عبد الجبار لحظة ، وهو يحملق عينيه ثم يرتد الى غرفته
صلياً .. لقد صمم أمراً لن يثنيه عنه شيء .

وماهي الا لحظات قليلة حتى يخرج من الحديقة ويمدو في الطريق
نحو زينب التي كانت تتخبط في بركة من دم ، حتى اذا صار على بضع
خطوات منها سمع دويماً هائلاً ، وتفتح زينب عينها للمرة الأخيرة فترى
الدارة الأنيقة تهوى بين السنة اللهب ، وعجيج الدخان والغبار ، وتلمح
عبد الجبار يلهث ويرتمي الى جانبها وهو يقول لها :

.. لقد فعلتها يا زينب .. القيت قنديل الزيت وهو مشتعل من الكوة
التي تطل على مخزن الذخائر ، لن يستطيعوا أن يتغلبوا علينا أبداً ..
اطمئني ، يا زينب ، اطمئني .. وتطبق زينب عينها وعلى فمها ابتسامة ! .

قصة عمّار

قصة عمّار هذه ياطالما سمعتها من جدي ، وفي كل مرة كنت أجدني مأخوذة بها ، متلهفة على متابعتها وكأني أسمعها لأول مرة . وما أدري اذا كان مرد ذلك الى طرافة القصة وروعتها ، ام إلى حديث جدي العذب الطلي الذي كان لا بد له ان يأسر مستمعيه ، فقد كان جدي قاصّاً بالسليقة ، عميق الصوت ، بطيئ الاشارات ، يعرف كيف يبدأ قصته بداية مشوقة ، وكيف ينهيها نهاية تترك في النفس انطباعها العميق . وكان يروي لنا هذه القصة بالذات كل مرة على نحو جديد يختلف عما سبقه تماماً . فمرة كان يحلو له أن يبدأها بوصف بطل القصة فيقول لنا :
- كم أتمنى لو أنكم عرفتم ابراهيم عمّار ! . . لقد عشت طويلاً ، ورأيت كثيراً فما وقع والله نظري على شبيه هذا الرجل أبداً .

كان عمّار فلانة من فلتات هذا الدهر . يرى عملاقا بين الرجال ، قوي البنيان ، عريض المنكبين ، ضخّم الرأس ، حاد النظرات ، له مهابة تملأ النفس ، وجمال يملأ العين ، اما خلقه وكرمه ومروءاته فما يبارى بها أبداً .

وتارة كان يحلو لجدي أن يبدأ القصة بوصف موكب الحج .
ويذهب في تصوير الموكب حتى يخيل اليّ انني اراه يسير أمامي . كان
يقول لنا :

- سقى الله ذلك العهد . . فوالله ما عرفت بلاد الشام موسماً أطيب
من موسم الحج . كان الحجاج يفدون الى دمشق من الصين ، والتر ،
ومن الأفغان ، والمعجم ، ومن بلاد الترك ، والكرد ، فيمكثون في
دمشق أياماً طويلة يفتنون أسواقها بما يبيعون ويشترون ، ثم يسرون
جميعهم تحت لواء الحج الشامي الى أرض الله المقدسة . وكان الحجاج
يجبون دمشق ويقدمونها ، ويطلقون عليها اسم (شام شريف)

كان موكب الحج يبدأ من سراي المشيرية^(١) وكان الوالي أو
المشير مع كبار الموظفين يقفون أمام باب السراي بألبستهم الرسمية
الموشاة بالقصب . ثم يؤتى بالمحمل على جمل مزوق بطررحمراء وأجراس
مفضضة . وكم كان لذلك الهرم الضخم المكسو بالمخمل الاخضر المطرز
بالقصب من مهابة في نفوسنا جميعاً . وكيف لا يكون كذلك وهو رمز
الحج ، أمنية كل مسلم . وكان الوالي أو المشير يأخذ مقود الجمل الذي
يحمل المحمل ويسلمه الى الباشا - أمير الحج - فيلتقاه هذا منه بخشوع
ثم يقبله متباركاً به ، وعندئذ كانت تصدح الموسيقى العسكرية ، ويقود

١ - السراي التي كانت مكان القصر العدل اليوم وكان يقيم فيها المشير الحاكم أو الوالي

الباشا المحمل بضع خطوات ، ويسير الموكب في طريق حي الميدان
يتقدمه جمل آخر يحمل السنجق - علم الحج - وهو مكسو بالقطيفة
الحمراء المطرزة بالقصب أيضاً .

فإذا وصل الموكب الى مكان ، كان يدعى - مصطبة الشيخ سعد
الدين الجباوي - حيث ضريح الشيخ الجباوي ، تراث قليلاً ريثما يخرج من
مقام الشيخ أحد أحفاده معتمراً عمامة خضراء كبيرة ، ومرتدياً جبة
خضراء أيضاً يتقدم من الجمل حامل المحمل ويلقمه لقمة كبيرة كالكرة
مصنوعة من معجون اللوز والجوز والفسق مع السكر . ولا أزال
أذكر كيف كان الجمل يلوك بشراهة لقمته اللذيذة التي لا يفوز بها من
جماعة الابل إلا من كان له شرف حمل المحمل ، وكان الناس يتسابقون
ويتزاحمون حول الجمل يلعللون الفئات التي تتساقط من فمه ثم يتهادونها
للبركة . ثم يتابع الموكب سيره ، حتى اذا وصل الى القدم - من
ضواحي دمشق - توقف هناك في ساحة كبيرة ريثما يجتمع شمل الحجاج
وما كان أروع منظرأ كنا نرى أشكالاً وألواناً من السحن والازياء
لا تخطر ببال .

فإذا أزفت ساعة الرحيل ، ونادي المنادي أن الباشا قد أمر
بالمسير ، كانت تفرع عندئذ الطبول ويكبر الناس ويهللون ويهزجون ،

وتهب الجمال هبة واحدة ويأخذ العكامون^(١) بزمامها ، كما يأخذ المهاترة^(٢) بزمام الخيول . وكان العكامون والمهاترة ينتخبون من أشداء الرجال الذين يصبرون على المكاره ، وكانوا يرتدون سراويل سوداء فضفاضة ، ومياتين مقلمة ، وعلى رؤسهم لفتات ذات عذبات طويلة .

وكنا نرى المحارات^(٣) المدهونة بألوان زاهية تتمايل على ظهور الجمال . وكان يتوسط الركب - التختروان^(٤) - الذي يعد لركوب الباشا أمير الحج .

ويسير الركب ، ويلوح له المودعون بأيديهم ، وفي قلوبهم لهفة عارمة لزيارة بيت الله الحرام ، يضرعون الى الله ان يناديهم في العام المقبل الى زيارة بيته العتيق .

وكان عمار زينة هذا الموكب كله ، يرى دائماً في الطليعة ممتطياً حصاناً أدم فارها ، وعلى كتفيه عباءة سوداء قد طرزت حواشياً بخيوط مذهبة ، وعلى رأسه عقاب مذهب ثبته على كوفية سوداء لها طرر مذهبة ايضاً ، تتأرجح على كتفيه كلما خب به جواده الأدم الأصيل

(١) العكامون : هم الذين يقودون جمال الحجاج - (٢) المهاترة : هم الذين يقودون الخيول والبغال - (٣) المحارة كهودج صغير وتعد غالباً لركوب النساء . (٤) التختروان كغرفة صغيرة مربعة تركز على بقلين ضخمين ويفرش داخلها بحشايا من الدامسكو أو الخمل وتعد للباشا وللكبار موظفي الحج والهوسرين من الحجاج .

يحف به دائماً عدد من السقاية ، والمكامين والمهاترة فكان كأنه والله
قائد عظيم .

و كنت اجدني أصني الى حديث جدي فاغرة في و خيالي الفتي
يرسم صوراً رائعة لهذا الرجل الذي يبدو لي كأبطال الأساطير .
وأحياناً كان يطيب لجدي ان يبدأ قصة عمار هذا من نصفها ،
أو من آخرها كأنه قاص عصري فيقول لنا :

- كنت ذات مرة عائداً من حجتي الثانية ، فلما جاوزنا منتصف
الطريق ، ودخلنا وادي النار، ذلك الوادي الرهيب الذي يتلوى بين شعاب
جبال شاهقة سوداء ، هناك كانت تبدو الصحراء وحشية الرهبة ،
عنيفة القسوة . وما أدري لم كان الحداء يصمتون عن حدائهم في هذا
الوادي الخيف كأن وحشته كانت تلجم أفواههم فلا يسمع فيه إلا رنين
أجراس الابل ، وحسيس السير فوق رماله الرمضاء . فلما خرجنا منه
إذا أحد الأدلاء يرتقي هضبة صغيرة كائنة في نهاية الوادي ، وينادي بصوت
عال حزين الوقع ، مضطرب النبرات :

- يا حجاج بيت الله الحرام تربثوا هنا قليلاً ، واقروا الفاتحة على
روح عمار .

وتثير كلماته في نفسي ذكرى مؤلمة تجعلني لا أملك حبس دموعي
وتحملني الذكرى الى قبل عشر سنوات مضت ، يوم كنت في طريقي

الى تأدية فريضة الحج لأول مرة ، حيث مررت بهذا الوادي ذاته ،
وشهدت فيه كارثة مروعة هيّات ان تنسحي فصولها من ذا كرتي .

ويتريث الحجاج فليلاً ريثما تقرأ الفاتحة ثم يتابع سيره . وأسمع
الحجاج من حولي يسأل بعضهم بعضاً :

- ومن عساه يكون عمار هذا الذي تريثنا من أجله ، وقرأنا على
روحه الفاتحة ؟

ويجيب الذين لا يعينهم من أمر هذه الدنيا شيء :

- مالنا وله ؟ حسبنا أننا قرأنا الفاتحة على روحه الطاهرة لعله ولي
من أولياء الله الصالحين ؟ . ويقول الذين يدعون العلم في كل شيء :

- عمار رضي الله عنه صحابي من أصحاب رسول الله ﷺ .

ويرد عليهم الذين أوتوا شيئاً من العلم :

- ولكن عماراً الصحابي ما دفن هنا قط .

ويتسم جدي ويقول : كنت أسمع ذلك كله وانا صامت أترحم
على عمار . فاذا انتهوا من حدسهم وتخمينهم رحلت أقص عليهم خبر عمار
فاقول لهم :

- لم يكن عمار ولياً ولا صحابياً كما تظنون . انما كان رجلاً شهماً
من أهل الشام ومن حي الشاغور فيها . وظل يتعهد سقاية الحج الشامي
سنين طويلة ، وهذه مهمة شاقة عسيرة وذات أهمية كبرى كما تعلمون
تحتاج الى خبرة ودراية ، ولا يعهد بها الا الى رجل ثقة قدير كعمار رحمه

الله . وكم كان الحجاج والقائمون على الحج يحبونه ، فما بخل عمار بالماء
مرة مهما كان الماء شحيحاً .

وذات عام كان الحر شديداً لافحاً ، وكان الحجاج أكثر منهم
في كل عام ، وراحوا يطلبون الماء بكثرة فلانتقع لهم غلة ، وراح السقاية
يتدمرون ويخشون ان ينفد منهم الماء فيشكون أمرهم الى رئيسهم عمار .
ولكنه وهو الكريم المتلاف كان ينتهرهم ، ولا يأبه لتحذيرهم أبدأ ،
ويأمرهم ان يقدموا الى كل حاج كفايته من الماء . ويقول لهم :

- لا عليكم اتم . سنصل غداً مع طلوع الفجر الى البئر اثرة الكائنة
في وادي النار والتي اعتدنا ان نخط رحلتنا عندها كل عام . وسنعيء
كفايتنا من مائها الغزير .

ولكن حدث ما لم يحدث ابداً . ولم يكن في حسابان عمار !!
عندما حط الركب عند البئر الموعودة ، وذهب السقاية ينضحون منها
الماء وجدوها ناضبة ليس فيها جرعة ماء واحدة ، وكان الماء الذي
يحملونه قد أوشك على النفاد ، ويرتدون الى عمار يحملون اليه خبر
السوء . ويا هول ما سمع عمار !!! .

انه هو وحده المسؤول عن هذه الكارثة المريعة التي ستفني
الحجاج الشامي بأسره ، لقد فرط بالماء أكثر مما ينبغي ولم يسمع لتحذير
السقاة وتذمرهم .

ويسري الخسبر بين الناس سريان النار بين الهشيم ، وما أسرع
ماتشيع الفوضى ، ويستولي الذعر على النفوس ، فيعلو الضجيج وتختلط
أصوات الرجال يبكاء النساء ، برغاء الابل وصهيل الخيل . وأرى عماراً
قد ازرق وجهه حتى كاد يسود ، كان يتفرس في وجوه الناس كأبله
مذعور يحاول تهدئة القوم فما يفلح أبداً .

ولن أنسى مرآه وهو ركض كالمجنون بين شعاب الجبال فوق
الرمضاء حاسر الرأس ، كأنه يود قتل نفسه ولكنه يخشى غضب الله
فيستجير بتلك الجبال لتخلصه من محنته ، كان يجار بصوت يبعث القشعريرة
في الأبدان :

- يا جبال وادي النار انهدي حمماً على عمار ! -

ويصل الخبر الى الباشا امير الحج فيأمر ان نفذ السير ما أمكننا
لنخرج من هذا الوادي اللعين الذي كانت جباله السود كأنها تفتح ناراً
تشوي جلودنا . وما هي الا ساعة أو بعض ساعة حتى خرجنا الى
صحراء مترامية الأطراف مد البصر .

هناك أمر الباشا ان نخط رحلتنا مرة ثانية ودعا الى خيمته عماراً
وجميع الأدلاء وبعض ذوي الرأي من الحجاج ليتداولوا الامر فيما بينهم .
ويقول جدي معتزلاً :

- وكنت واحداً منهم . وأشهد ان الباشا كان رقيقاً بعمار فلم
يوجه اليه تأنيباً أو لوماً ، وفي مثل هذه الحال كان يباح له أن يضرب

عنه . وبعد المشورة يجيء الرأي : اننا لانستطيع ان نواصل سيرنا ابدأ
فالبئر التي تليها بعيدة جداً ، والماء الذي معنا لا يكفينا مؤونة الطريق .
وربما هلكنا جميعنا قبل ان نصل اليها . ويقول بعض الادلاء :

— كنا قد سمعنا ان غير بعيد من مكاننا هذا توجد بئر صغيرة كان
ينزل حولها بعض الاعراب ، وكانوا يفدون الينا احيانا يتكسبون من
الحجاج عندما نخط رحلتنا في وادي النار ، ويقولون ان ماء تلك البئر
عذب غير ولا ينضب ابدأ . فلو انحرفتنا عن طريقنا شرقاً بضعة أميال
استطعنا ان نصل اليها ونعبيء منها حاجتنا من الماء ، ثم نعاود طريقنا
الاصيل ، ولا بأس علينا اذا تأخر ميعاد وصولنا الى مكة يوماً أو بعض
يوم ، وليس أمامنا غير هذا السبيل .

وينبري آخرون من الادلاء ويقولون :

— ولكن البئر التي نتحدثون عنها تقع شمالاً من مكاننا هذا وليس
شرقاً كما تتوهمون ، واتنا لواتقون من قولنا هذا .

ويجتمه الجدال بين الطرفين دون طائل ، وإذا الباشا يقول :

— مادام في الأمر شك فلا يجوز لنا أن نغامر بالحجيج كله ، سنغامر
ببضعة رجال منا يركبون الخيل ويسرون مسرعين نحو الشرق يبحثون
عن البئر ، وسنتظرهم حتى صلاة العصر فاذا لم يعودوا أخذنا الطريق
الثانية قبل ان يهبط الظلام .

ويعد الباشا يده الى خرج قريب منه فيخرج منه كيساً مملوءاً
ذهباً يفرغه أمامه كومة وهاجّة ويقول :

- وسيكون هذا الذهب كله من نصيب هؤلاء الرجال ، وإذا لم
يعودوا كان ديناً في رقابنا لورثتهم ، وسيكون أجرهم عند الله عظيماً .
وقبل أن ينطق احد بكلمة ينبري عمار وقد أشرفت أساريره
ويقول بلهفة :

- انا لها وحدي يا باشا ، والله لن يذهب ممي أحد . أضرع اليك
ان تعيد هذا الذهب الى مكانه فلا حاجة لعمار به ، ما فائدة الذهب يا باشا
إذا عز الماء ؟ ! ! .

وقبل ان يتيح لأحد ان يتكلم يخرج من الخيمة مسرعاً ويأتي
بحصانه الأدهم ويفتح قربة ماء يقدمها اليه ويقول له أحد الرجال :
- ويلك ! هل جنت يا عمار ؟ أتدع هذا البهيم يعب الماء عباً ونحن
أحوج مانكون الى كل قطره منه ؟ .

ويرد عمار بهدوء يشوبه كثير من المرارة :

- دعه يشرب لعلها آخر شربة له ! .

ثم يمتطي جواده ، ويشمّل الجموع بنظرة تضمهم جميعاً ، ثم
يضرب صدره بكفه الضخمة قائلاً :

- انا لها وحدي يارجال ، اطمئنوا لن ينجينا الله . إذا أذنت العصر
ولم أعد اليكم فاعلموا أن الصحراء قد ابتلعت عماراً ! . . . فاياكم ان
نتظروني لحظة واحدة . خذوا طريقكم شمالاً ، وإنكم لو اجدون البئر
ان شاء الله .

وترفع ألوف الأيدي تلوح له ، وقد بدا على الوجوه شيء يسير
من الاطمئنان ، ويلكز عمار حصانه فيعدو به كأنه يطير طيرانا ،
ويروح حجمه يصغر ويصغر حتى يلوح كالغزال ، ثم كالطائر ، وتظل
العيون تتابعه بلهفة حتى يصير كنقطة سوداء ما تلبث ان تذوب في
الأفق البعيد .

ويرين السكون على هذه الجموع الغفيرة فلا يسمع إلا طقطقة
المسابع ، ودوي رهيب ينبعث عن قمتة الدعوات والابتهالات ، وتمر
الساعات بطيئة ثقيلة ، والعيون لاتعب من التحديق الى الأفق . حتى
الابل كانت ترى رابضة على الارض مصغية باعناقها الطويلة الى الأمام ،
وفي عيونها امتسلام ذليل الى مصيرها المحتوم ، كذلك الخيل كانت
ترى صافنة هادئة كأنها مهمومة وجميعها تحدد الى حيث يحدد الناس
كأنها تمي الكارثة المخيفة التي تنتظرها .

ويظل الجميع يترقبون بلهفة ما بعدها لهفة النقطة السوداء التي
ستظهر في الأفق البعيد ، والتي ستكبر وتكبر حتى تصبح عماراً على
حصانه الأدم الفاره يحمل اليهم بشرى النجاة .

ولكن النقطة السوداء ما ظهرت لنا قط ، وتظل الصحراء على صمتها
الرهيب الذي يقهر النفس ويكيدها كيدها .

وتحين العصر ، ويعتلي المؤذن تلك الهضبة القائمة في نهاية وادي
النار ، ويؤذن العصر ، وعندما يفرغ من الآذان يقول بصوت يقطر
حزناً ولوعة :
:

- يا حجاج بيت الله الحرام اقرأوا الفاتحة على روح عمار ! . . .
وخذوا طريقكم شمالاً وإنا لو اجدون البئر ان شاء الله .

ويسير الركب حزيناً واجماً وتظل أعناق الناس مصغية الى الوراء
تبحث في الأفق البعيد عن نقطة سوداء تحيل الحزن فرحاً ، واليأس أملاً .

وما هي إلا ساعات قليلة حتى وجدنا البئر . وكان قد بدأ يخيم
الظلام ، فراح السقاية ينضحون منها الماء ، وكلها أخرجوا دلواً لا بد لهم
أن يصرخوا : رحمة الله عليك يا عمار ، وراح الناس يشربون ويفتسلون .
وتظل في القلوب حرقة هيات ان يطفئها الماء النмир .

ومنذ ذلك الحين وكلما مر الحجاج الشامي بوادي النار وانتهى الى
تلك الهضبة ذاتها ، لا بد أن يعتليها احد الأدلاء وينادي :

- يا حجاج بيت الله الحرام تريثوا هنا قليلاً وقرأوا الفاتحة على
روح عمار ! .

سراب

قال محدثي :

قلت لصديقي و كناقذ وصلنا مطار جنيف في صباح يوم مشرق أغر:
- لا أدري يا أخي ما الذي حملك على الاسراع بالهجيء بنا الى
المطار قبل قيام طائرنا بساعات؟.

فما كان ضرك لو تر كتنا نستمتع قليلاً برؤية تلك البحيرة الرائعة
التي لا تملها العبن ولا تسأماها النفس؟
ويضحك صديقي ساخرأ ، ويقول :

- دعك من هذا . . اتحسب اني أصدقك ؟ . أقسم بالله انك لم تر
من البحيرة الرائعة شيئاً !. لقد كنت مأخوذاً بتلك الحسناء التي كانت
تجلس بالقرب منا على شرفة الفندق ، والتي كانت تضحك بين حين
وآخر بنظرات كلها اغراء .

قلت : ورأيتها أفت - على ما يبدو لي - غير حافلة بك ، ولا
آبهة لأمرك ، ففاظك منها ذلك ، فراححت تلح علي بالهجيء الى هنا ،
حتى اضجرني الحاحك فطاوعتك ، وياليتني لم أفعل ! .

قال صديقي : انك والله لظالم لي فيما تهمني به ! فأنا قد اشفقت عليك من الوقوع في جبائل هذه الحسناء اللعوب ، وعهدي بك سريع المآخذ ، ونحن على وشك السفر ، ووشك الافلاس أيضاً ، فأجبت أن أتقذك من هذا المأزق الحرج .

قلت : شكراً لك على اهتمامك هذا . ولكن أرجوك بعد اليوم الا تشفق علي من الحب مها كانت الاسباب وجبهة ، كان الاخرى بك أن تشفق علي من عدم الوقوع في جبائله ، انا الذي شارفت الخامسة والعشرين من عمري ولم أذق طعمه بعد ! وكلما أقدمت عليه وجدتهني احجم عنه دوغما سبب كأني أرهبه .

قال صديقي : لا عجب في ذلك أبداً . لأن من المسير على من كان مثلك يعيش في دمشق ، في بيئة محافظة مترزمة كبيتك ، ان يستمتع بالحب كما يستمتع به الآخرون ، فالحب في مثل هذه الاجواء مصادفة قد يجود بها الدهر وقد لا يجود ! ومع ذلك لا أخفيك انني استغرب كيف تعامت بنات حواء عن قوامك السميري ، وعينيك الجذابتين ، فلم يهدن لك السبيل الى الحب ، وعهدي بهن صيادات ماكرات لا يفلت من جبائلهن من كان على شاكلتك .

قلت ضاحكا : ياليتني كنت أسمع هذا الاطراء من فم هذه الحسناء مثلا ، لامن فمك أنت ! وأشير بيدي الى حسناء صغيرة كانت تعبر ردهة المطار بمشية خفيفة رشيقة ، وقد تركت شعرها الاشقر

يموج على كتفها بلا انتظام ، وارتدت بنطالا قصيراً أزرق ، وقميصاً
أبيض ينحسر عن ذراعها المفتولتين ، وعنقها الاتلع .

قال صديقي : قم بنا نتبعها ، وجرب أن تتحدث اليها ، فأنت
تجيد اللغة الفرنسية عسى أن تفارقك تلك الرهبة التي تستولي عليك أمام
الحسنات ، وتحرمك من مغامرات الحب . ولعلك تحسن ظنك بي
عندما تعوض هنا مافاتك هناك على شرفة الفندق بسبيي .

وقمنا على الفور نسير في اثر الفتاة ، وكانت قد خرجت من ردهة
المطار ، ودخلت مقهى أيقماً أقيم في المطار لراحة المسافرين ، وقد انتشرت
فيه موائد صغيرة ذات أغطية برتقالية اللون ، وفوق كل مائدة زهرية
فيها باقة من اليلك البنفسجية تعطر الجو بأريجها المنعش ، وتضفي عليه
بهجة ، ورونقاً ، وسحراً . وفي زاوية المقهى اقيم (بيك آ ب) يبعث
بموسيقى شجية ناعمة ، وكلما صمتت الموسيقى كان يقوم أحد الحاضرين
فيضع في ثقب بجانبه شيئاً من النقود على الاسطوانة التي يرغب في سماعها
فتعود الموسيقى الى صدحها الشجي . وجلست الفتاة بمفردها أمام احدى
الموائد في أقصى المكان الذي يكاد يكون خالياً من الزوار في ذلك
الصباح ، الا من بضعة أشخاص انتشروا حول الموائد هنا وهناك .

قال صديقي : يظهر لي من ألبستها انها ليست على أهبة السفر ،
ربما جاءت الى المطار لتستقبل صديقاً لها .

فقمتم من فوري بلا تردد ، وهدمت ملابسي ، وسويت شعري
واتجهت صوبها ، وانا احضر في ذهني ما سأقوله لها ، فلما صرت أمامها
تماماً ارتج علي ، شأني دائماً مع كل حسناء ، وأخذت أنظر حولي كأنني
استنجد الأشياء لتسعفني ، ويقع نظري على الشارع العريض الذي يبدو
من الشرفة التي وراءها ، والذي يصل المطار بمدينة جنيف ، فقلت لها
بعد أن حيتها :

- هل تسمح الآنسة فترشدني الى أين يصل هذا الشارع العريض؟

فابتسمت بخبث ثم قالت هازئة :

- والى أين تريده أن يصل ، ان لم يصل الى جنيف ؟

قلت : اني يا آنسة غريب . وبليد أيضاً كما ترين . وستأخر

طائرتي قليلاً ، فهل تسمح الآنسة أن أتناول معها فنجاناً من القهوة ؟

فضحكت وقالت : بكل سرور . . .

فقعدت قبالها وقلت لها :

- يبدو أن الآنسة جاءت هذا الصباح لتستقبل احدر كاب الطائرة الآتية .

- لا ، أبداً ولكن من عادتي أن أقوم كل صباح بنزهة طويلة على

دراجتي ، فاذا تعبت دخلت الى أحد المقاهي فاستروحت قليلاً ثم عدت

ادراجي ، و كانت وجهتي هذا الصباح طريق المطار .

- هذا من حسن حظي .

وتوقف ، أثناء ذلك الموسيقى فتبدي أسفها ، فأقوم حالا واتجه نحو (البيك آ ب) واضع في ثقبه شيئا من النقود قائلا ، فيما بيني وبين نفسي : يا حظي ! فاذا هي موسيقى راقصة .

قالت دهشة : هذه موسيقى راقصة ، لم اخترتها ؟

- لم اخترها أنا ، تركت اختيارها لحظي الذي أراه حسنا هذا الصباح على غير عادته ، فاذا الموسيقى تدعونا الى الرقص .

قالت مستغربة : الى الرقص ؟ في هذا الصباح الباكر ؟
وفي ألبسة الرياضة ؟

- هل في سويسرا قانون يمنع ذلك ؟

- لا أبداً ، نحن أحرار هنا ، نفعل ما يروق لنا ، مادمنا ، لا نزعج الآخرين .

- وهل سينزعج الآخرون اذا رقصنا الآن ؟

- لا أظن ، ولكنها سيضحكون منا حتما .

- ولا أجمل من أن نرقص نحن ، وبضحك الآخرون .

قالت : فلنرقص اذن .

وتهب واقفة ، وآخذها بين ذراعي ، ونبدأ الرقص ، و كنت منذ سنتين حاولت أن أتعلمه فلم أفصح أبداً . ولكنني وجدت قدمي في ذلك الصباح تساعدني على اللف والدوران كأبرع من رقص .

وتلقي الفتاة رأسها على صدري ، وتتفرس في وجهي بوله ، واروح
أبيه في أغوار عينها الحالمين حيناً ، المتوقدتين أحياناً ، وكأنه قد
اختلطت زرقة بحيرات سويسرا بمخضرة مروجها .

كنت أشعر اني أطيّر في أجواء سحرية ، ما حلم خيالي في
ارتياحها يوماً ، لقد نسيت كل شيء ، الرمان والمكان - وصديقي
أيضاً الذي كنت ألمحه بين حين وآخر بقوم الى (البيك آ ب) فيعيد
الينا الموسيقى كلما توقفت عن العزف .

كنت اوثر الصمت ، ولكن الصبية تكلمت فسألني قائلة:

- أحقاً انك ستسافر بعد قليل ؟

أجبت بلهجة آسفة : نعم ياعزيزتي ، بعد قليل ! .

- والى أين ستسافر ؟

- الى بلادي .

- وهل بلادك بعيدة ؟

- نعم بعيدة .. بعيدة جداً . هل تستطيعين ان تحزريها ؟

- صفها لي .

- أنا من أقدم مدينة على وجه الارض .. أنا من بلاد أزدهرت

فيها حضارات ، وقامت فيها دول ، وفنيت دول ، ورغم ذلك كله ظلت
صامدة للخطوب ، هازلة بالدهور . أنا من مهبط الوحي ، أنا من أرض

الانبياء ، أنا من بلاد السحر والخيال ، أنا من بلاد الف ليلة وليلة ، أنا
من منابع البترول ، أنا من مناجم الذهب .

- حسبك . لقد حزرت . أنت عربي اذن .

قلت معتزاً : نعم يا عزيزتي ، أنا عربي .

قالت : بالروعة هذه المصادفة الغريبة .. لكم حملت منذ كنت

صغيرة اقرأ الف ليلة وليلة ان يخطفني فارس عربي أسمر ، رسمه خيالي
على شكلك تماماً ، في عينيه لهفة تم عن نبل ، واخلاص ، كما في عينيك ،
لم أعهد لها في عيون فتیان بلادي ، ثم يطير بي الى قصره الساحر القائم
على واحة خضراء ، في صحراء مترامية الاطراف ، يلوح لي سراها
من بعيد حيناً بعد حين .. وراح الحلم يعاودني صباح مساء حتى عشقت
صاحب الحلم ، وعزفت عن كل من كان يتقرب اليّ من الرجال ،
ومازلت عزوفة عنهم الى الآن .

قلت : وأنا أيضاً يا عزيزتي لكم حملت أن يكون لي حبيبة صغيرة ،

على شكلك تماماً ، حتى ليخيل الي انني أعرفك منذ زمن بعيد . اتصدقين
انني أنا الذي ترينني زلق اللسان كنت الجهم امام كل حسناء كأنني
مرصوداً من أجلك ومن أجلك وحدك .. كم كنت أحلم ان يكون لي
حبيبة بشقيها فراقى ويضئها ، فاذا سافرت جاءت تودعني ، وتلوح لي
بمديلتها الأنيق ، ثم ترده الي عينها لتكفكف به دموعها المنهمرة .. الا
يمكن لك ان تفعلني ذلك من أجلي بعد قليل ولو على سبيل التمثيل ؟ ألم
يسبق لك ان ودعت حبيباً الى غير رجعة ؟

وتنظر إلي كالعائبة وتقول :

- لا . لم يسبق لي ذلك أبداً ، ولكن أراني الآن سأودع ذلك الحبيب !
وما كادت تنتهي من قولها هذا ، حتى أعلن مكبر الصوت قيام
طائرتي . فتوقفنا عن الرقص ، وراحت هي تتفرس في وجهي بذهول
وتقول كالحالمة :

- ما أقصر هذه الساعة الحلوة يا فارسي العربي !

أهكذا يموت حلمي الجميل ، ويمسي سرايا ؟!

ثم تتع عينها الجميلتان ، وتمتلئان بالدموع ، وتلقي رأسها على
كتفي وتجهش بالبكاء !

كان الاسبى يهصر قلبي وأنا أتملى من جمالها وهي تبكي . ويتمثل
في خاطري قول الشاعر العربي الذي كنت انتقد مبالغته عندما يصف
لنا حبيبته في ساعة وداع ، فيشبه لنا عينها بالترجس ، ودموعها بالؤلؤ ،
وخديها بالورد .

لقد كان الذنب ذنبي اذن ! ! لم يسبق لي ان رأيت كما رأى هو ،
عينين زرجستين يتساقط منها الدمع كالؤلؤ الرطب ، على خدين
كأنهما الورد الندي .

ووجدتني أنا الذي عهدتني عصي الدمع ، يطفر الدمع الى عيني
فجأة ثم ينهمر غزيراً من مقلتي فيختلط بدموعها ، ويعلو نشيجنا .
كما يعلو ضحك صديقي . كان الخبيث يصوب الينا آلة تصوير ، ويلتقط
لنا صورة ، ليبرزها حجة كلما حلاله ان يرويهانكته سائفة للاصدقاء .

ثم يتقدم منا ، ويفرق بيننا وهو يقول لي ضاحكا :

- أحقا أنك تبكي ؟ أو تعرفها من قبل ؟

ماعرفتك والله مجنوناً الى اليوم .. ثم يأخذ بيدي ويتجه بي الى الطائفة التي كانت على أهبة القيام . واراها وأنا أصعد السلم تسلوح لي بمنديلها ، ثم ترده الى عينها لتكفكف به دموعها المنهمرة . ثم ترتفع الطائفة فتغيب عن ناظري ، وامعن في البكاء .

اتقلت مني فتاة احلامي بعد ان لمستها بيدي ثم يغيبها القدر عني كما يغيب السراب امام التائه في الصحراء ؟

وياخذ صديقي في مواساتي ، وتخفيف حزني فما يجديه ذلك نفعا ، ولما يئس مني قال لي :

- لم كل هذا الأسى يا صاحبي ؟ مادام كلا كما مفتونا بصاحبه يكفي ان تبرق اليها فتطير اليك من فورها .

واضرب جبهتي آسفاً وأنا اقول له :

- لقد نسيت ، نسيت ان آخذ عنوانها ! لماذا لم تذكريني ؟

ويضحك صديقي هازئاً شامتاً ويقول :

- اراك مستظل في ميدان الحب غيبا ، بليداً معها حالفك النجاح .

[Faint, illegible handwriting, possibly bleed-through from the reverse side of the page]

شخصيات غير رسمية

— لا فائدة انه يحتضر ! . . قد ينتهي اليوم أو غداً ! .
وتحترق الكلمات أذنيه كرصصات طائشة . . ويحلق بالطيب
المائل أمامه فلا يرى منه إلا الشفتين الآمتين اللتين أطلقنا الحكم القاطع على
أبيه الحبيب . . ويظل في مكانه جامداً لا يتحرك كأنه لا يبي ما يسمع .
والطبيب المعجوز يرت كتفه ويواسيه قائلاً له :

— كن يا بني رجلاً ، انت أكبر اخوتك فلا تتخاذل أمامهم . .
كلنا على هذه الدرب ، ما فائدة الحزن ؟ . . إنا لله وإنا إليه راجعون ،
ويفسح الطريق أمام الطيب وهو ذاهل ثم يغلق الباب خلفه
بحركة آلية ، كم يود لو أنه لا يصدق ما يسمع منه ، ولكن كان كل شيء
من حوله يؤكده قوله . . الحزن العميق بدأ ينشر ظلاله يبسط صامت على
جوانب الدار حتى كأنها ما عرفت المرح والهناء فيما مضى من أيامها
الحوالي .

زغردة النافورة التي تتوسط الدار راحت تقع على سمعه كلولوة
شكلي على وحيدها ! .

شجيرات الياسمين والزلف التي زرعها أبوه بيديه وعرضها على
الجدران والشبابيك بدت لمينيه وكأنها أكاليل ذابطة على قبر شاب عزيز!
مرأى زوجات أبيه الثلاث وهن جالسات على كتف اللبوان
يكفكفن دموعهن وينظرن الى بعضهن بمطف وحنان وكان المصيبة
المتوقعة قد جمعت بينهن وأذابت كل شحناء وبنضاء قامت بينهن في الماضي.
إخوته وأخواته الصغار ينظرون الى أمهاتهم الباكيات بخوف
ووجل وقد اصفرت وجوههم ، واتسعت عيونهم ولطى كل واحد منهم
في ناحية يفسر حسب ادراكه مايجري حوله من أمور مخيفة .
وتناديه أخته الكبيرة بصوت باك قائلة له :

ان أباه يطلبه بالحاح ، يريد ان يتحدث اليه وحده .
آه ! هل يستطيع ان يضبط نفسه أمام أبيه ، ويجلس دموعه
المنهمرة ؟ . . . ويسير خائفاً يجر رجليه ويدخل غرفة أبيه .
وما يكاد المريض يشعر بدخوله حتى يفتح عينيه المتعبتين ويشير
اليه أن اقم على حافة السرير . ثم ينتظر قليلاً كأنه يهديء نفسه
المضطربة ، ويجمع قواه المتلاشية ثم يقول بصوت مخنوق كأنه آت من
غير هذا العالم :

— اغفر لي يا بني ، سأترك لك حملاً ثقيلاً، وهما كبيراً، ما كنت أحسب
ان عمري سيكون قصيراً الى هذا الحد ! .
— ما هذا التشاؤم يا أبي ، نسأل الله ان يبقيك لنا .

— لا فائدة مني ، لقد انتهيت يا بني ، ومستكون أنت يا خالد رب هذه الأسرة من بعدي . فكن يا بني رقيقاً بها ما استطعت .

— سامحك الله يا أبي ! أتوصيني بأخوتي وأخواتي ؟ هل أنا بحاجة الى وصية ! ؟ .

ويلوح على وجه الأب شبح ابتسامة ما يلبث ان يتوارى ثم يقول :
— لا يا بني لست والله بحاجة اليها . انا أعرف طيبة قلبك ونقاء ضميرك . ولكنني اطالبك بوعده يخيل الي انه يصعب عليك تحقيقه ، ولكن لا بد لي منه كي يطمئن قلبي عليك وعلى هذه العائلة الكبيرة التي سأتركها أمانه في عنقك .

— سأكون كما تريدني يا أبي .

ويصمت الأب قليلاً ليريح انفاسه المتعبه ثم يقول :

— ألا تعتقد يا بني انك أدبت ما عليك من واجب نحو وطنك ؟

ويحاول الابن ان يقاطع أباه ليقول له :

— وهل يحدد واجب المرء نحو وطنه ما دام هو قادراً على أداء هذا الواجب وما دام وطنه بحاجة اليه ؟ .

ولكن الأب يستمر في كلامه :

— ألم تجلس شهوراً طويلاً في قلعة دمشق ، وتعذب وتهان لانك دائماً في طليعة المناوئين للفرنسيين في هذا البلد ؟ ألم تنف الى جزيرة أرواد وتجلس فيها مع رفاقك لك ما يقرب من السنتين وانت لم تتجاوز

العشرين من عمرك ؟ فكيف لي ان أطمئن عليك وعلى هذه الأسرة
مادمت سائراً في طريقك هذه ؟ من ياخالد يرعى اخوتك الصغار اذا
حبست ؟ ومن يحافظ على اخواتك اذا نفيت أو أصابك مكروه ؟ .
عدني يا ولدي انك لن تخاطر بنفسك بعد اليوم . . أتذكر اني اعترضت
مرة واحدة في الماضي ؟ ألم أكن مشجعاً لك وفخوراً بك في كل ما تقوم
به من أعمال في سبيل وطنك وأمتك ؟ اما بعد اليوم لم تعد مسؤولاً
عن نفسك فحسب ، ستصبح من بعدى رب أسرة كبيرة فحرام عليك
ان تعرض نفسك للخطر وأسرتك للهوان .

ويأخذ الابن يد أبيه يقبلها ويبلها بدموعه ويقول له صادقاً مخلصاً:
- اطمئن يا أبي، أعدك اني لن أخالف مشيئتك ابداً .

وينمض الاب عينيه ، وقد اتعبه الكلام فتعاوده الغيبوبة ،
وترسم على فمه ابتسامة اطمئنان ورضى .

ويخرج خالد من غرفة أبيه موزع النفس مشتمت الفكر يشعر
بالضياع ، لا يستطيع ان يجمع فكره ليسأل نفسه هل اخطأ ام أصاب
عندما قطع على نفسه هذا العهد امام ابيه المحتضر ؟ .

لم يكن يدرك انه يحب أباه الى هذا الحد . منذ ماتت أمه اصبح
ابوه مزواجاً فكان احياناً يلومه ، وأحياناً يحقد عليه فيما بينه وبين نفسه
ولكن سرعان ما يعود ويغفر له عندما يرى حنانه الفائض الذي يغمر
أفراد أسرته الكبيرة على السواء ، لم يخطر له أن اباه سيموت يوماً ،

ويتركه هذا العبء الثقيل . كان دائماً ممتلئاً صحة ونشاطاً كأنه في عز
شبابه ، وان كان قد أشرف على الستين . لا تفارق الابتسامة شفثيه مهما
كان متعباً . ينهض بأعباء أسرته الكبيرة دون ان يشكر مرة أو يتذمر
او يحمل أحد ابنائه بعض أعبائه ، يريد دائماً ان ينهض وحده بالحمل
الثقيل ، انه شمعة هذا البيت، أيطفئها الموت هكذا على أهون سبب ؟ ! .
كم يتمنى ان يفديه بأعز ما لديه ! .

ويسمع طرقات متتالية على باب البيت ، طرقات لا يخطئها سمعه ،
انهم رفاقه الذين يعمل معهم في منظمة سرية تنظم المظاهرات والاضرابات
داخل البلد ، وترتبط بالثوار القائمين في الغوطة فتنفذ ما يطلبون منها
من مهمات مهما كانت خطيرة . آه لو أنهم يتركونه الآن وهمه ، لن
يستطيع بعد اليوم أن يكون واحداً منهم ، يقوم بما يقومون به من
اعمال خطيرة ، لانه سيصبح رب أسرة كبيرة . لاشك أنهم سيعذرونه
ويفتح لهم الباب . ويبادلهم تحية مقتضبة ثم يدخلهم الى غرفته
الخاصة . كانوا ثلاثة شباب يبدو عليهم الاضطراب ؛ ويهم ان يشرح
لهم حاله وما سيؤول اليه أمره ؛ ولكن أحدهم يسبقه الى الكلام بلهجة
فيها تأنيب وعتب :

- أين انت يا أخي ؟ ما معنى غيابك عنا ؟ لم نرك منذ ثلاثة أيام .

ويقول آخر :

- أتغيب عنا ساعة نكون في أشد الحاجة اليك ؟

ويتمهل بالجواب قليلاً ثم يقول بصوت مضطرب :

— أبي مريض ، انه يحتضر . . ان استطيع فراقه لحظة .

ويحملقون به كأنهم لا يفهمون قوله . وكان أصفرهم اسرعهم الى الكلام :

— وماذا يعني ذلك ؟ هل نحن في ظروف عادية ؟ ألم أترك انا مريضة

واذهب الأردن لأبتاع سلاحاً للثوار ، وعدت من هناك فلم أجدها . . ان أباك

يا أخي سيموت كما يموت كل الناس على فراش وثير بين أهله وأولاده ، ولكن

هناك في الغوطة شباباً تتناثر أشلاؤهم ، وتنزف دماؤهم ولا طبيب

يسعفهم فيمسك عليهم رمق الحياة ، يقدمون على ذلك من أجلي وأجلك

وأجل الآخرين ، ثم تتخلى عنهم في أخرج لحظة .

وينظر اليهم صامتاً لا يجد ما يقوله لهم . ويقول آخر :

— القضية هامة يا خالد تتعلق بك بصورة خاصة ، اصع إلي :

غداً سيرسل الفرنسيون حملة كبيرة الى الغوطة ، ستخرج كما

علمنا مع طلوع الفجر ، والثوار كما تعلم قد نفذت ذخيرتهم كلها ولن

يصلهم السلاح الا غداً أو بعد غد ، ومعنى ذلك ان الحملة ستقتلهم جميعاً

او يساقون الى السجون والمشانق ! . . الا اذا استطعنا نحن ان نمرقل

سير الجيش يوماً أو أكثر كما طلب منا .

ويرد عليهم ساخراً بنزق :

— أيجانين انتم ؟ . . أنستطيع نحن ان نمرقل سير الجيش ؟ .

— نعم نستطيع . . اذا استطعنا ان ننسف جسر (تورا) الذي

سيمر الجيش فوقه ، ولا بد له عندئذ ان يعود الى دمشق ريثما يصلح

الجسر ، لأن الجسر هذه هي أسلم الطرق الى الغوطة في نظر الفرنسيين ،
وليس بيننا كما تعلم من يجيد صنع القنايل والألغام غيرك ، وقد نفذ ما كان
لدينا منها ، فانظر أي خدمة تستطيع ان تؤديها الى الثورة ، ترى
لو بقيت هنا الى جانب أبيك ، أتستطيع ان تهبه الحياة ؟ ولكنك تستطيع
ان تدفع عن المجاهدين خطراً كبيراً اذا نسفت الجسر .

ويشعر بالخجل امام رفاقه ، ويدرك ان عاطفته القوية نحو أبيه
قد أعتمته عن الحق ، وكادت تصرفه عن الواجب الذي رهن له نفسه
حتى آخر حياته .

ولم يجد ما يرد به عليهم سوى ان يسير أمامهم منكشأ ، موزع
النفس ، يشعر بجزي ذليل فيندى جبينه بالعرق ، ويقول في نفسه :

— غفر الله لك يا أبي ، كم كنت أناانياً عندما طالبتني بهذا الوعد ! .

ويغلق باب بيته وشعور خفي يوحى اليه انه لن يعود اليه أبداً .
وكان احد رفاقه قد ادرك ما يدور في نفسه فراح يربت كتفه قائلاً له :

— هكذا عرفناك دائماً يا خالد . . ها أنت ذا قد عدت الينا ، ان
ظروفك قاسية ، ولكن هناك ما هو اسمى من شؤوننا الخاصة . ليطحن
بالك ، مستعهد أسرتك اذا أصابك أي مكروه ، سنواري أبالك التراب ،
وسنكون كلنا أبناء .

بقي خالد يعمل طول الليل في بيت منزل لا يثير الشبهات ، كان
قد اتخذه ورفاقه مقراً لاجتماعاتهم السرية ، وجعل خالد من احدى غرفه

معملاً صغيراً مجهزاً بأدوات بدائية ويبيض مواد كيميائية ، واستطاع بما
خبره من تجاربه الخاصة ومن بعض معلومات كان قد اكتسبها ايضاً
عندما كان يعمل في ورشة ميكانيكية ، أن يصلح بعض الأسلحة الفاسدة
وان يصنع قنابل وألغاماً يمد بها الثوار ، وكان العسكريون منهم
يدهشون لنجاحه في عمله هذا ، ويمجّبون من بعض اختراعات يتفقد
عنها ذهنه ، فيقوم بتصميمها وصنعها بنفسه في معمله الصغير ؛ ويحسب من
يراها انها صنعت في معامل خاصة بالأسلحة . كان ينكب على عمله هذا
ليال طويلة غير آبه لأخطار الانفجارات التي يتعرض لها أثناء العمل .
واستطاع في تلك الليلة ان يصنع قنبلة هائلة ؛ لم يشأ ان يجعلها
مؤقتة خشية ان يخونه الحظ كما خانته ذات مرة ؛ فتنفجر قبل مرور
الجيش او بعده ، أثر ان يوصلها بسلك طويل ؛ وعندما يجذب السلك
ستنفجر القنبلة حتماً ؛ هذه اسلم طريقة ؛ ولكن من يجذب السلك عند
مرور الجيش ؟ نادى رفاقه وعرض عليهم الأمر ؛ لقد اعتادوا
ان يقترعوا فيما بينهم عندما تقتضي الحاجة ان يقوم احدهم بمهمة خطيرة
وإذا القرعة تقع هذه المرة على خالد . واذا هو يفرح بهذه المصادفة لأن
المغامرة ستنجح حتماً وستنفجر القنبلة في الوقت المناسب فهو يثق بنفسه
اكثر من أي شخص آخر من رفاقه ؛ لن تخونه اعصابه مهما بلغت
خطورة المغامرة .

قبيل الفجر كان خالد ورفاقه يدفنون القنبلة تحت الجسر ؛ ويمددون
السلك المتصل بها الى حفرة غير بعيدة عنه ، ثم يقعد خالد في الحفرة

ويسترها رفاقه بالاعشاب والاغصان اليابسة ويطلبون من خالد ألا يبرح
الحفرة حتى يعودوا اليه ويدبروا نقله الى مكان أمين . ويختبيء كل واحد
منهم في مكان ليراقبوا انفجار القنبلة .

وتمر الساعات على خالد بطيئة ثقيلة كدهور طويلة ، وهو قابع
في الظلام ويده على السلك . لم يخطر له أبوه المحتضر ، ولا أسرته الحزينة
ولا العهد الذي قطعه على نفسه وحنث به بعد ساعات . لم يعد يشعر
بشيء ؛ او يفكر بأمر ؛ كأن كل حواسه قد استجالت آذاناً ؛ وآذاناً
مرهفة تتلقف اضعف الاصوات .

ومع طلوع الفجر سمع هدير خفيفاً راح يشتد شيئاً فشيئاً فقدر
انه هدير دبابات الجيش ، وانتظر قليلاً ثم جازف ومد رأسه بين الاغصان
التي تغطي الحفرة فاذا هو يري طلائع الجيش قد بدأت تقرب من الجسر
فاشعر جسمه ، ووجف قلبه ولكنه ظل مالكا اعصابه فعاد وانكش
على نفسه بضع دقائق ، ويده على السلك . لم يخفه سوى أمر واحد . .
هو ان يطراً على القنبلة أي خلل فلا تنفجر الانفجار الذي يتوقه لها
ويتمم :

— يارب خذ بيدي ، يارب أعني . . لا تخذني . . ويجذب السلك
وتمر اللحظة الرهيبة . . . وإذا دوي هائل اكثر مما كان يتوقع ،
تهتز منه الارض كأن زلزالاً قد اعترأها .

لم يجازف هذه المرة ويمد عنقه بل ظل مكوماً على نفسه وظلت
أذناه تتلقفان الاصوات ، فاذا ضجيج وزعيق ، وصراخ وأنين ، ويشعر
بالحزن يمصر قلبه فيسد أذنيه كي لا يسمع شيئاً ، آه كم يكره القتل ..
لم يسبق له ان ذبح عصفوراً . ويقول في نفسه :

— ربي هؤلاء المستعمرون جعلوني قاتلاً بالرغم عني . وتسترخي
اعصابه المشدودة فيشعر بالالم يدب في مفاصله وأطرافه ، وبرطوبة
الارض تتسرب الى جسمه كأن حواسه كانت في شغل عنه فلما انهى
مهمته راحت تستيقظ شيئاً فشيئاً ، وبدأ يشعر بضيق يكاد
يكنم أنفاسه كأنه سجين في قفم وما يدري
كم مضى عليه من الوقت وهو ينتظر رفاقه حتى لم يعد يستطيع صبراً ،
وبقرر أن يخرج من الحفرة ، ويعود الى بيته ليرى اياه للمرة الأخيرة ،
وليقتضي الله ما يقضي .

وزبح الأغصان عن الحفرة ويمد رأسه وينظر الى مكان الانفجار
فيرى عجيج الغبار لم يهدأ بعد واناساً كثيرين يثيرون لفظاً وضجيجاً .
ويقفز من الحفرة ويتلفت يمينا ويساراً كأرنب مذعور ، ثم ينفض عنه
التراب ويسير متأنياً وهو يترقب في كل لحظة ان يقبض عليه ، ويسير
مسافة طويلة دون أن يترضه أحد كأن هناك قوة خفية كانت تعمي
عنه الابصار ، ويفكر أن يستاجر عربية ليواري فيها نفسه ويمد يده
الى جيبه فلا يجد فيها شيئاً من النقود ، لقد نسي محفظته في البيت ، هذه

غلطة يجب ان ينبه اليها رفاقه عندما يكلف احدهم مهمة خطيرة يجب ان يزود بشيء من المال لما يطرأ عليه من مفاجآت ليست بالحسبان .

ويظل جاداً في سيره ، فما زالت المسافة بعيدة الى بيته . ترى هل مات أبوه أم ما يزال يقامسي آلام الاحتضار ؟ وماذا يقول عنه أفراد أسرته وقد قضى هذه الليلة الرهيبة بعيداً عنهم ؟ لاشك سيتهونونه بالعقوق واللامبالاة ، وهو لا يستطيع أن يبوح لهم بالسر ليبرر لهم غيابهم عنهم ، ويشرف على سوق الحميدية ، فيرى جنازة تتجه نحو الجامع الاموي يسير وراءها عدد قليل من المشيعين فيهبط قلبه ويتفرس بهم من بعيد فيرى أهله وبعض أصدقائه فيعرف انها جنازة أبيه ! ويشعر كأن خنجرأ حاد النصل ينغرز في قلبه شيئاً فشيئاً ، ويظل مسمرأ في مكانه حيران . أيركض ويأخذ مكانه وراء النعش وليحدث ما يحدث ! ويتقدم منه رجل ويهزه بعنف ، انه احد رجال الأمن من الذين يعملون لصالح الوطنيين ويتجسسون على الفرنسيين في نفس دوائرهم . ويقول له :

— أيجنون أنت ؟ لم أتوقع ان أراك هنا !

ويسجبه الى منعطف متوار ، ويهمس في اذنه :

— اليس فعلتك؟ لقد حذرت .. حادثة اليوم عظيمة .. عظيمة جداً .

انها أروع ما قمت به ، يقولون ان عدد الضحايا قد بلغ المئة ، والضباط الفرنسيون يكادون يجنون غيظاً .. ويحسبون ان دولة اجنبية تمد الثوار

بالمعاد وبالفتنين ، ومع ذلك الشكوك محوم حولك ، اننا جادون في طلبك ، وقد امرنا أن نأتي بك حياً أو ميتاً !

ويرد عليه ساهماً كأن ماقاله الرجل لا يعنيه :

- أتعلم ان الجنازة التي كانت تمر من هنا هي جنازة أبي !

- أعلم ذلك ، والآن قد انتهى كل شيء ، يجب ان تفكر بنفسك ،

أركب عربة أو سيارة واذهب الى مكان أمين . هيا دبر نفسك . لا أستطيع ان أقف معك اكثر مما وقفت .

- ولكن ليس معي قرش واحد .

ويعد موظف الأمن يده الى جيبيه فيخرج شيئاً يدسه في يده خالد ثم يتوارى عنه مسرعاً .

ويصل خالد الى مكانه الامين ، الى البيت المنعزل الذي اتخذه ورفاقه مقرراً لهم . ويظل مختبئاً فيه أياماً ، والفرنسيون جادون في طلبه ولما يتسوا من العثور عليه ، اجروا له محاكمة غيايبية وحكموه بالاعدام شنقاً!

استطاع رفاقه بعدئذ ان يدبروا له الهرب من دمشق . ويظل مشرداً عن بلاده حتى ينجلي عنها الفرنسيون .

بعد عشرين عاماً كاملة ويوم عيد الجلاء الأول ، أروع عيد عرفته بلاد الشام ، كانت هذه القصة تمر في خاطر رجل كهل وهو واقف على ناصية الطريق القائمة على مدخل دمشق ، وكلما سمع الهتافات

الحماسية التي تطلقها حناجر الشباب رقص قلبه طرباً وامتلات عيناه
الوديعتان بالدموع ، وشعر بالاعتزاز يملاًه لانه ساهم في صنع هذا اليوم
العظيم ، ويسرح في نشوة عارمة الى أن يوقظه منها صوت شرطي بمن أوكل
اليهم حفظ النظام كان يدفعه في صدره ، ويصرخ في وجهه قائلاً :

- تنح يا هذا عن مكانك !. ألا ترى انه مخصص للرجال الرسميين؟

ويضحك خالد ملء فمه ، كانت فرحته في ذلك اليوم العظيم

الكبير من أن يشوبها أي كدر . . ثم يقول للشرطي :

- الله يسامحك . . الحق معك يا أخي . أنا لست من الرسميين .

ثم يتراجع الى الوراء ، وينخرط بين الجموع الغفيرة التي يعلم الله

كم كان بينها من مناضلين أمثاله ، ولكنهم دائماً في الصفوف الأخيرة ،
لأنهم شخصيات غير رسمية ! .

Faint, illegible text, possibly bleed-through from the reverse side of the page.

الصقوع في الربيع

كانت طالبات الصف يقلن عنها : انها جذابة .. وان سر جاذبيتها كان يمكن في عينين سوداوين تألقان في وجهها كنجمتين ، وفي غمازتين نادرتين تنطبعان على خديها الاسمرين كلما ابتسمت . وما أكثر ما كانت تبسم ! فأيام حياتها كانت تجري هينة لينة لا كدر فيها ، كجدول تر في سهل أخضر .

و ذات يوم انقطعت ذات الغمازتين عن المدرسة ، وماعرف أحد سبب انقطاعها هذا ، الى ان تلقت بعد سنين عديدة احدي صديقاتها — وكانت تعنى بكتابة القصص — رسالة منها تروي فيها قصة حياتها وترجوها أن تنشرها بين قصصها لأنها تريد أن يقرأها الناس . وتقول لها في الرسالة فيما تقول :

أنها قصة قديمة ، ليس فيها شيء من طرافة الجدة ، ورغم ذلك فهي ما تزال كمشكلة قائمة في مجتمعنا ، ان استطاع بعضنا ان يتحرر منها فما يزال بعضنا الآخر ضحية لها حتى اليوم . ولذا فهي جديرة بالكتابة والمعالجة ، وهاهي القصة :

كان يترقبها كل يوم أمام باب المدرسة شاب اسمر طويل ، وان لم
تتبين ملامحة جيداً من وراء حجابها الكثيف ، فان وسامته لم تخف عليها .
كان يسير وراءها يتبع خطواتها كأنه خادمها الأمين . حتى تصل
بيتها ، و كان بيتها يقع في حي قديم لا تصل اليه إلا بعد أن تقطع أزقة
ضيقة معتمة ، وتمر بطرق ملتوية ذات منعطفات . وكثيراً ما كان يخلو
الزقاق من المارة فيسيران وحدهما فترة ليست بالقصيرة . كان صدى
خطواته المتزنة الثقيلة عندما يختلط بوقع خطواتها الرشيقة على بلاط
الزقاق يصل الى سمعها كموسيقى حلوة التوقيع لم يمح صداها
من ذاكرتها حتى اليوم .

كانت دائماً تتوقع أن تسمع منه شيئاً ، كلمة غزل رقيقة ، دعابة
حلوة ، شأن غيره من الشبان الذين يدأبون على ملاحقة الفتيات مثيلاتها ،
ولكن صاحبها هذا كان يظل سادراً في صمته ، بعيداً عنها لا يكاد يتعدى
المسافة التي تفصل بينها أبداً .

أما هي فكان جل ما تفعله هو أن تترشق في مشيتها أكثر
من عاداتها ، وان تشد أحياناً معطفها على خصرها النحيل ليبدو جمال
جسمها وحسن تكوينه .

ويظان على حالتها تلك أكثر من شهر ، لا يخلف ميعاده معها
أبداً ، وتصبح هي كأنها تنتظر هذا الميعاد ، وتمن الى رفيق دربها ،
وتأنس به وتخشى ان تفقده يوماً ما .

ولكنها بدأت تستثقل صمته ، وتتساءل الى متى سيطول هـ
الصمت؟؟.. أبادئه الحديث ؟ . ولكن هذا لا يليق بفتاة محافظة على
التقاليد مثلها . . ويخطر لها خاطر مريع يهلع في قلبها : لعله أخرس ؟
وتستغرب هلوع قلبها . واذا هي تخادع نفسها وتموه عليها فتقول :
مالي وماله؟؟.. ان كان اخرس او فصيحاً ؟ ولكن شيئاً في اعماقها
كان يهزأ بها ويقول لها :

لماذا يشرذ ذهنها اليه اذا حان الميعاد ، فلا تعود تفقه من الدرس
شيئاً ؟ كانت تنظر الي ساعتها في كل لحظة تستبطيء سير الزمن وتتمنى
ان تطير اليه في كل لحظة ليسيرامعا في جلال صمتها المهيّب الي آخر
الدنيا .

وذات مرة قبل ان تصل الي دارها بخطوات يمر بها شاب وقع من
شباب الازقة ، يستغل خلو الزقاق من المارة حين لم يفتن للماشق الصامت
الذي كان يسير وراءها غير بعيد عنها ، ويروح يتحرش بها فيسير ملامصاً
لها ، ثم يمد يده فيمس خصرها وهو يمرض بها بأغنية شائعة آنذاك :
«يام الخصر المشوق حيرتيني من اين امرق»
واذا هي تسمع صوت صاحبها يصرخ به :
— اخرس يا قليل الحياء .

ثم يتناولها بصفحة حامية تجعله يترنح من الرصيف الي الرصيف . .
وتتوقف هي عن السير قليلا ، وشعور مفاجيء من التيه يملأ نفسها ،
وتتمنى في تلك اللحظة ان تعيش في ظل حمايته طول عمرها . . وتجدها

فرصة مناسبة لان تحدته . فتلفت اليه وتفرس في وجهه عن قرب ، من وراء حجابها فتؤخذ بوداعة عينيه العسليتين الواسعتين وتقول له مرتبكة :

—شكرا . . . الله يسلم يديك .

فيبتسم في وجهها بنجل ويقول :

—من يستطيع ان يمسك بسوء ؟ ؟

ثم يردف هامساً :

—غداً متبدأ العطلة ، ولن اراك حتى تفتح المدرسة !!

كان يقولها بلهجة عميقة الاسى ، وما يكاد يتمها حتى تجد نفسها

فجأة امام دارها فيجيبها بهزة من رأسه ثم يتابع دربه .

كان ذلك في آخر يوم من شهر رمضان ، وفي الغد ستغلق المدارس

ابوابها بمناسبة عطلة العيد .

دنيا جديدة انفتحت امامها ، كل شيء كان فيها يضحك .. ما احلي

رسم هالات مضيئة حول حبيب مجهول ، وما اجمل الانتظار على امل

اللقاء . . .

كانت ايام هذا الاسبوع الذ ايام حياتها ، عاشتها بكل ذرة من

ذرات كيانها .

وكانت امها قدقالت لها ذات يوم :

—لقد اصبحت صبيرة على عتبة الزواج ، سأشتري لك بضعة اذرع من

حرير ملون لتطريزها قمصانا للنوم في اوقات فراغك . فما احلي الصبيرة التي

تطرز جهازها بيدها . وتشتري امها الحرير . ولكنها لم تهتم به ابدا .

تركت الرزمة كما هي مهملة في احد ادراجها ، وكلمها حثتها امها على التطريز

انتحنت لها الاعذار ، ولكنها في ذلك اليوم كانت ترغب ان تخلو الي ذاتها ، فلا تترك مجالا لاحد يطالبها بعمل ما . لتدع خيالها يلعب ، ويفتن باللعب كما يشاء . فاخرجت رزمة الحرير واختارت منها قطعة بيضاء رسمت عليها ازهاراً في زاوية ربيعية ، وجلست من زوايا ساحة الدار ، في ظل شجرة ليمون، كانت امها قد غرستها يوم ولدتها ، كما اعتادت كلما ولدت ولدا .

هناك تحت شجرتها المفضلة قعدت تطرز . في كل غرزة كان يورق لها حلم ، وتفرد امنية كما تفرد اجواق المصافير بين اغصان الليمونة الفينانة .

دفع الربيع ، وشذى زهر الليمون، ودغذغات الحب البكر في القلب الفقي ، واخضرار الامل في عيني بنت السادسة عشر ، كؤوس خمرة متزعة لكل رشفة نشواتها.. اراجيح ملونة تتلاعب بها فوق النجوم. لم تخرج اثناء العطلة من البيت ، فقد ابت ان ترافق امها في زيارتها كما هي عاداتها . ظلت مكبة على تطريز احلامها حتي انتهت القميص قبل يوم العطلة بيوم واحد . ولما رآته امها دهشت من جماله واتقان تطريزه، فقالت لها :

— ما كنت اعرف يا خبيثة انك تمجدين التطريز الى هذا الحد ، انا لم ار احلي منه عمري . اتمنى يا بني ان ترتديه وانت عروس لرجل يسعدك طول حياتك . فاشرق وجهها ولعت عينها ، وهمت ان تحدث امها عن الرجل الذي اختارته ليسعدها وتسعد مدي الحياة . ولكن الكلمات

جمدت على شفقتها ، خشيت تزمت امها وان تنكر عليها معرفتها برجل
غريب . وآثرت ان تتحدث اليه اولا . غدا ستفتح المدرسة ، وستراه
حتما ، وستطلب اليه بوضوح ان يخطبها من ابويها او ان يكف عن ملاحظتها .
في ذلك اليوم عاد اخوها من عمله متجهم الوجه ، وانكرت منذ
دخل البيت تصرفه معها . لاحظت انه كان يراقب كل حركة من حركاتها
وكأنه يحاول ان يخترق بنظراته الثاقبة رأسها الصغير ليعرف ما يدور
فيه من اسرار . لم تكن في يوم على وفاق مع اخيها الوحيد الذي يكبرها
بخمسة سنوات . وكان من الذين يجنون ان يفرضوا سيطرتهم على كل من
حولهم ولكن سرعان ما كانت تتناساه وترح من جديد في خيالاتها
المجنحة ...

عادت الى المدرسة وبدأت ترقب المدرسة منذ الدرس الاول ، وما
مرت عليها ساعات بطيئة ثقيلة كمثل تلك الساعات .

ويبين الوقت فتخرج من المدرسة وتلحجه واقفا في مكانه كالعتاد ،
فيكاد يطير قلبها اليه . وتتابع سيرها ، ويسير هو خلفها غير بعيد عنها
كما هي عادته . كانت مضطربة مرتبكة ، تحاول في كل لحظة ان تلتفت
اليه ، وتحديثه بما عزمت ان تحدثه به ولكن شيئا ما كان يلجم لسانها .
وتساءل :

هل سيعود الى صمته الثقيل ؟ ؟ ام لان الطريق لم تخل اليوم من
الناس ؟ وهو لا شك حريص الا يسيء الى سمعتها فيما اذا تحدث اليها
ورآه احد معارفها ، او اقاربها .

وسرعان ما يمضي الوقت وتصل بيتها فمعرفة طريقها قصيرا ابدا كما عرفتة اليوم .
واذا هو يتقدم منها بخجل وحذر ويدس في يدها رسالة زرقاء .
آه ما احلي رسائل الحب ! . . هذه اول رسالة حب تتلقاها . . .

ولكن لم يكتب لها ان تقرأها ابدا !!

لقد انشقت الارض عن مارد يخطف الرسالة من يدها ، ويدفعها
بعنف الى الدهليز ، ثم يفلق الباب خلفها ويعود الى الطريق ليحاسب
صاحب الرسالة حسابا عسيرا !!
قصة حبها ماتت في المهدي .

لقد ضفر اخوها من موتها الحزين اكليل شرف يتوج به جبهته .
راقب اختك : كلمتان لثيمتان حملها البريد الى اخيها في ورقة بلا
امضاء . ويراقب الاخ اخته ، فتقع في الفخ من اول يوم !
لا شك ان كاتب الرسالة هو الفتى الرقيق الذي تحرش بها ذات يوم
فقد لمحته يضحك شامتا ساعة دفعها اخوها الى البيت . لقد عرف الوضع
كيف يثار لنفسه .

اما ابوها — بعد ان بلغته القصة — فلا يريد ان يرى وجه النحس
ابدا ، تلك التي تجرأت على خدش شرف الاسرة الرفيع .
قطع الله نسل البنات . . . ولولا براءة الرسالة التي وصلتها ونبيل
قصدها لكان للسكين والدم والبالوعة دور في القصة !! .
ويصدر الحكم بان تقطع عن المدرسة ، وان لا تخرج من البيت الا
في صحبة امها ، ولا امر ضروري .

حتى امها الحزون كانت قاسية في لومها ، ولم تستنكر هذا الحكم
الجائر ابداً .

في عيني اخيها تلتهم فرحة الانتصار ، وفي اصابعها رغبة ملحة لان
تستل هذه الفرحة اللثيمة من عينيه . ولكن يدها مشلولة لا ترتفع ،
وثورتها الجائحة تظل مكبوتة في اعماقها لا تجرأ على الظهور . انها تدرك
تماما بان اخيها لا يريد ان يتزوج ابداً . . . سيضع العقبات في طريق
زواجها ما امكنه ليستأثر وحده بثروة ابيه ، ويجعلها اسيرة في بيته
كحشرة في بيت عنكبوت يقيد الف قيد واه وهي اضعف من ان تفلت
من قيودها الواهية .

آه كم تكره هؤلاء الذين اقاموا انفسهم حماة لها . . . ولكن ماذا
تستطيع ان تعمل غير ان تجلس نفسها في غرفتها الصغيرة كلما ضاقت بها
الدنيا .

الصقيع يملأ ارجاء الغرفة الصغيرة . . . وكآبة سوداء تلف كل شيء
فيها . . . قميصها الجميل الذي طرزت عليه احلامها معلق على المشجب
كفتي وحيد مصلوب امام عيني أمه ! ! . . .
وتتناول برفق ، وتطويه بحنان ثم تدفنه في قعر صندوق عتيق ليا كاله
العث على مهل .

أصبح ليلها طويلا بلا نجوم ، وعيناها حزبتين بلا دموع ، والقبر
حجر صلد يربض فوق احشائها ولا يتحرك ابداً .
في صباح ذلك اليوم بالذات سمعت أمها تشهق وتقول لابيها :

-ياويلي مالذي جرى لشجرة الليمون؟؟ ..
البارحة كانت كالعروس ، واليوم ذبلت أوراقها مرة واحدة
وسقطت جميع أزهارها ! .. انظر كأن بساطاً من زهر أبيض
مفروش حولها .

وكان أبوها قاعداً في صدر اللبوان ، كسلطان من سلاطين الف
ليلة ، يدخن النارجيلة باسترخاء . ويسحب التريش من فمه ويقول :
— ربما أصابتها لفحة صقيع ..
وتقول أمها :

— ومن أين جاء الصقيع ونحن في الربيع؟؟ ..
ويقول أبوها :

— وليس اقل من الصقيع في الربيع .. ما أحسبها تنجح بعد اليوم
ومن الخير أن تقطعها .
كان يقولها يبرود ولا مبالاة يثيران الغيظ والحنق في قلب الام ، فتجيبه بنزق :
— اعوذ بالله ! فال الله ولا فالك ! اني اتشاءم من قطعها . لا . لا لن
يقطع الليمونة أحد وانا حية .

ويلوي شفثيه من سخف كلامها ، ويعيد التريش الي فمه ، فيسحب
نفساً طويلاً تكرر له النارجيلة ببلادة .

ذهب ربيع واتي ربيع ولم تبرعم شجرة الليمون زهرة واحدة .
كان ماء الحياة يجف في اغصانها يوماً فيوما ، منذ هجرتها اجواق العصافير
ومنذ تساقط أوراقها وتأت أشواكها حادة كالخناجر ..

وتزاح الستارة ذات صباح أمام عيني الام عن مأساة مريضة . . .
كانت تتفرس في وجه ابنتها الشاحب وتتساءل برعب :
أين اختفت الغمازتان الحلوتان ؟ وكيف حل محل كل واحدة منها
غضون . اذا ضحكت الصبية اقتربت الغضون من بعضها وبدأ وجهها
كوجه عجوز هزيلة . . . ، وهكذا العينان البراقتان أصبحتا كهفين
أسودين انطفأت فيها الاحزان !!
ولكن ماذا تستطيع الام ان تفعل ؟ هي أيضاً امرأة تقيدها
خيوط العنكبوت .
ويستحيل الكمد في قلب الام سرطانياً يا كل كبدها بنهم ويزداد
شراهة كلما خطرت بياها جملة مخيفة مريضة :
وليس اقل من الصقيع في الربيع .

العودة أو الموت

لقد سدت في وجهي جميع أبواب الرزق . . لذلك لم أجد مناصاً من الرضى بأن أعمل سائق سيارة للاجرة . غير أنني اشترطت على رب العمل صاحب السيارة بأن يكون عملي في الليل رغم ما في ذلك من مشقة وجهد ، فالليل اخفى للويل كما يقولون .

كنت اقبع منكمشا على نفسي خلف مقود السيارة اواري وجهي من المارة خشية ان يراني احد معارفي او اصدقائي .

كنت اتخيل الدهشة التي ستعتريه ، والاسف المرير الذي سيرسم على وجهه وهو يمدق الي كأنه يقول في نفسه وقد خامره الشك في امري :

لك الله يانكبة فلسطين ! ! احقاً ما أرى ؟؟ . .

ايصبح حسن بك سائق سيارة للاجرة ؟ ! . هذا الذي كان احد الوجهاء البارزين في يافا ، والذي كانت هوايته الوحيدة هي اقتناء السيارات الفخمة ، حتى كان يبدل سيارته كل عام بسيارة جديدة . واثمته كيف يدور على عقبه ثم يختفي من امامي ، اما رحمة بي واشفاقاً علي ، او تحاشياً لما قد يجرجه من حالي .

على انني ما لبثت وقدم الزمن ، حتى تبدل احساسى ، وتجمد شعورى ،
ولم تعد تر بخاطري امثال تلك الخطواطر السخيفة . لقد الفت عملي
هذا واستكنت اليه ، ورضيت بالواقع المرير ، واصبحت اعيش ليومي
فقط ، واعمل كآلة صماء . لقد تساوت في نظري قيم الحياة ومفاهيمها ،
فلا فرق عندي بين خيرها وشرها ، رفيعها ووضيعها ، واصبحت تراني
احدق الى المارة وانا خلف مقود السيارة كأني اتحداهم واحداً
واحداً ، او كأني اقول لهم :

أنا فلان بن فلان وقد اصبحت كما ترونني فأني دعوى لكم عندي ؟؟
وكنت قد اتخذت لسيارتي موقفاً اتصيد منه الركاب امام ملهى ليلى
مشهور قرب مطار دمشق .

وذات ليلة عاصفة وقد اربت الساعة على الثانية بعد منتصف الليل ،
وانا ما ازال قابلاً في مكاني خلف المقود ، انتظر خروج رواد الملهى ،
واقاسي آمة الانتظار ، وقساوة البرد ، ادخن اللفافة تلو اللفافة
واعصابي في خدر ثقيل ، لاشيء يثير اهتمامي ليذكرني بيوم كنت فيه
من رواد امثال هذه الملاهي ، بل من زبائنها المرموقين . . كادت
تنقطع كل صلة لي بالماضي الذي اخذ يدولي على قربه سحيقاً ، سحيقاً
كأنه مغطى بضباب كثيف .

ويخرج من الملهى رجل قصير بدين والى جانبه امرأة فارعة الطول ،
وأراه بعد قليل يشير الى بطرف اصبعه ، واسارع لتلبية طلبه ، . .
لقد اعتدت على تلبية اشارات الاصابع كأني سائق عتيق . . وتنساب

سيارتي الى حيث قد وقف ، والى جانبه المرأة الفارعة . وما يكاد ضوء
السيارة يقع على وجهها حتى اعرفها لاول وهلة رغم ما طرأ عليهما من تغير .
كانت هي (ميمي) بعينها . . تلك الحسنة اللعوب التي كانت تعمل
في ملاهي يافا قبل النكبة . وكان قد سبق لي ان عاشرتها آنذاك مدة
طويلة اغدقت عليها خلالها اموالا طائلة حتى اذكر اني اهديتها فيما
اهديتها سيارة بويك خضراء . وما كدت اعرفها حتى اعتراني ارتباك
شديد غطرت لي ان اراجع ، ولكن يد الرجل كانت قد ادركت باب
السيارة ، ومرت (ميمي) من امامي واستوت في السيارة الى يمين الرجل
دون ان تلتفت فتراني او تأبه لي واستطعت ان احقق اليها قليلا .
ولم يعد في نفسي ادنى شك من انها هي بنفسها . ولكن المسكينة كانت
ترتدي ثياباً رخيصة على غير عاداتها وقد اختفت اناقها ، وتلاشت كبرياؤها
التي قلما كانت ترى على مثيلاتها من النساء . وبدت لي وكأنها على ابواب
الكهولة ، رغم انها لاتزال في ريعان صباها . وخيل الي اني استطيع ان
اسيطر على اعصابي المضطربة . . ، ما هي الا دقائق وستمر بسلام . . ،
واخذت اشعر بفصمة مريرة واقول في نفسي :

يا لتصاريف القدر ! اين انا اليوم من يوم كنت فيه اسوق سيارتي
الخاصة والى جانبي (ميمي) في عز شبابها وجمالها يحسدني على صحبتها
كثير من الشباب . وخطار لي ان التفت اليها واقول مازحاً :

حتى أنت ، لقد أزرى بك الدهر بعدنا ! . . .

وما أدري لم اعترني رعدة هزتي هزاً عندما سمعت صوتها ذا الرنة

الشجيرة والتي كان سحرها يبلغ اعماق نفسي وهي تحدث الرجل قائلة له :
— أين هي سيارتك ؟ أعرف ان لك سيارة خاصة .

ويجيبها الرجل بصوت ثمل :

— لقد بعته من امد قريب . لاني ارغب في شراء سيارة من
طراز جديد .

وتقول ميمي :

— ياسلام ! عظيم ! عليك بالبويك اذن . لقد جربتها . . ليس بين
السيارات سيارة تضاهيها فخامة ومتانة . كان عندي سيارة بويك خضراء
اهداها الي صديق عزيز .

ويقاطعها الرجل بلهجة ساخرة ، وكأنه ظن ان المرأة تلمح له
ليشتري لها سيارة ، اسوة بصديقها العزيز :

— ياسلام . . انت كان عندك بويك ! ؟ . . ومن هو صديقك العزيز
هذا الذي يهدي السيارات البويك ؟ ؟ . .
وترد عليه بلهجة مفعمة بالاسى :

— هو من يافا . . وقد مات المسكين شهيداً في حرب فلسطين ! .
ويقهقه الرجل وهو يقول :

— الله يرحمه . . . ويفرقه برحمته . . . خلصنا منه الحمد لله .
وأكاد اشق دهشة من جوابها غير المنتظر . . ومالبثت ان وجدتي
اقود السيارة ساهماً . . فاغراً فمي ، بمحلقا بلا شيء ، وانا اقول في نفسي :
— أميت انا اذن في نظر بعض الناس ؟ ؟ . .

اماتتي اللعينة بسهولة لا مزيد عليها! .. بكلمتين فقط ، كلمتين باردتين .. كم اصبحت هيناً عليها! .. اماتتي وهي تعلم يقيناً اني حي ارزق .. ولكنني ميت في نظرها مادمت معدماً ، لاجئاً ، مسكيناً ، لا يملك شيئاً . هل نسيت اللعينة الاموال التي اغدقتها عليها ؟ . ماذا يحدث لها يا ترى لو اني التفت اليها الان ، وأضأت النور ، واريتها وجهي ثم قلت لها: رحمة الله على شهيدك الكريم !! ..

هممت ان افعل ذلك ولكنني ما لبثت ان تراجعت وانا اقول في نفسي: لا لا .. لا يحق لي أبداً ان اخرجها او اربكها ، وقد مننت علي ساعة لفقت هذه الكذبة ، واختارت لي هذه الميتة الشريفة الكريمة شكراً لها .. لقد اماتتي والله حيث كان يجب علي ان اموت .. . ليس الموت خيراً من هذا الهوان ؟ ؟ ..

ويفوتني بعض حديثها ، ثم اسمعه يقول لها بسخرية لاذعة :
— ان صاحبك اليافاوي هذا كان كريماً متلاًفاً ، وبطلا مغواراً في آن واحد . لقد اهداك كما تقولين سيارة بويك ، وهذا ليس بقليل ، ولكنه اهدى فلسطين وروحه ! .. فهو كريم متلاف في كل الميادين على ما أرى . وكان يشد على الكلمات ويعطها امعاناً في السخرية .

وترد عليه متصنعة الغضب والنزق :

— ما أقسالك ! .. انهزأ حتى بالشهداء الابرار ؟ .. اطو لنا هذا الحديث ، اخشى ان يجرنا الى جدل ينتهي بخناقة . انت دائماً لاتصدق ما اقله .
ويجيبها يرود :

— والله اني لأهزأ بقولك . . . وهل اتجرأ على ذلك ؟؟ . . . ومتى

كنت لا اصدق ماتقولين مها كان نوعه . . . ؟

ولكنني استغرب ما سمعته منك الان ، فانا أعرف تماماً ان الرجال الذين يجودون بالسيارات الفضة على الحلوات امثالك في مثل الظروف الحرجة التي كانت تمر بها فلسطين لا يمكن ان يكونوا من الصنف الذي يجود بأرواحه من اجل بلاده . فصاحبك هذا على ما يبدو لي نسيج وحده ، ولذا فقد حاز كل اعجابي ، وتقديري ، واحترامي .

قالت :

— يا الهي . . . الا تكف عن مسخريتك منه اليوم ؟؟ انا اعرف ان

مبعث ذلك هو الغيرة . انت غيور لا تستطيع ان تسمع مديحاً لغيرك ولو كان ميتاً ، ولا تستطيع ان تخفي شيئاً في نفسك . الم اقل لك دعنا من حديثه ؟ . . . الله يرحمه . . .

فققه ضاحكاً ثم قال :

— انا غيور ؟؟ . . . ما أبعد الغيرة عني ! . . . ما كنت والله لاغار من

اصحابك الاحياء فما قولك بالاموات منهم ؟ . . . ان الرجل الذي يستطيع ان يثير غيرتي لم يخلق بعد ، ولن يخلق ابداً .

قالت بدلها المعهود :

— كم يعجبني غرورك .. انه يستهويني . . . ما احلاه ..

وكان جوابه لها قبلة طويلة ، صك صوتها سمعي واحديث في رأسي دوياء ، وفي يدي اضطر اباً . وشمرت برغبة ملححة في ان اسد دضربة شافية لهذا الثقيل تهشم

استنانه . . ولكن لم كل هذا التجني ؟ . . ألان الرجل نطق بالحق ...
ألم اكن في الواقع واحدا من هؤلاء المتعاونين ، اللامباليين ، الذين قصرُوا
في حق بلادهم فلسطين ولم يؤدوا ما عليهم من دين لها؟. ألم اكن اعيش على هامش الحياة
لا ابالي بكل ما يجري حولي من الاعيب الاستعمار حتى أصبحت احدا الضحايا؟!
وانتبه فجأة فاذا انا اقود السيارة على غير هدي ، وكأنها قد جمحت
بي ، فاذا انا اسير في طريق مظلمة ، ما ادري والله كيف انتهيت اليها ، وقد اضعت
اسم الشارع الذي سماه لي الرجل وهو يركب السيارة. ويتنبه الرجل ايضا
وانا في حيرتي هذه فيصرخ بي قائلا :

— العمى يعميك ، اما حمار بليد !! الي اين انت ذاهب بنا ؟؟
واشعر بدمي يفور ، ويصعد مرة واحدة الى رأسي ، واجزم ان لم احسن
الهرب في اسرع ما يمكن فانا مقدم على امر فظيع .
ودون ان افوه بكلمة اوقفت السيارة ونزلت منها بسرعة و صفتت
بابها بكل مالدي من قوة ، واسرعت الخطى وتواريت في منعطف مظلم ،
وتركتها حيث هما يصخبان .
ليحدث ما يحدث . . . وتهو السماء على الارض . . . لم اعد احتمل
اكثر مما احتملت .

ورحت اهم على وجهي في الظلام تصطرع في نفسي احاميس لاعهد
لي بها . كأنني كنت في سبات عميق ، فلما وقعت في هذا المأزق
تنهت فجأة وفتحت عيني على حقيقة بشعة ، وثار ضميري كما لم اعرفه
بدأ ، مارداً عملاقاً ، كما هو الان :

كيف خرجت من بلادي؟؟ . . وكيف رضيت هذا الذل والهوان
واستكنت اليها؟ . . ولم لا أعود اليها فأروي ارضها الطيبة بدمائي ،
كما انطق الله هذه المرأة التافهة .

ان عزيمة صادقة راحت تتفجر في كياني ، استطيع الآن ان اتخطي
الصعاب ، واقتحم المهالك . . واجدني اعدو في الظلام كأن هذه
الافكار تدفعني الى العدو ، وترسم في مخيلتي شيطان يافا ويبارتها الخضر
فيخيل الي اني بالغها الآن .

ما أروع ان يكون للانسان هدف يسمى اليه ، كل ما في يصرخ :
«العودة او الموت . ولن احيد عنها ابداً» .

وميض برق

اطفء النور . . انه يرهق اعصابي ويتعب عيني .
قالت ذلك — وهي تتحاشى النظر اليه — بصوت خفيض ، فيه
رقة ، وفيه عذوبة ، رغم لهجته الآمرة .

ودون اي اعتراض — شأنه معها دائماً — وضع الكتاب الذي
كان يقرأ فيه جانباً ، ومد يداً معروقة ، طويلة الاصابع قد اثرت عليها
شعر أسود ، وادار زر الكهرباء ، فعم غرفة النوم الانيقة ظلام حالك ،
وسادها صمت ثقيل .

ويظل هو مستوياً على سريره كما كان ، متجهاً صوبها . وتظل هي
ساكنة ، ممددة على سريرها المقابل لسريره ، واضحة يديها على صدرها ،
متجهة بناظرها نحو سقف الغرفة .

لـكم تمنى هو في تلك الليلة الباردة ، ذات العواصف الهوجاء ان
يضم جسمها اللدن الصغير بين ذراعيه ، فينعم بدفء انفاسها ، وطيب
عبقها . . ولكنها كانت قد افهمته وهي تخلع ملابسها وترتدي قميص النوم :
انها تعبئة جداً هذا المساء ، يرهقها النعاس ، ومنذ اكثر من ساعة وهي

تمنى ان ينصرف الذين اطالوا السهرة اكثر مما ينبغي لترتمي في سريرها
وتستسلم الى النوم الذي الح عليها كما لم يلح أبداً .

قال في نفسه :

يالها من صغيرة ماكرة ! .. كم تحيد اختلاق الاعذار ، وكم تتقن
التمثيل . . اراها تكرهني وتضيق بي ؟؟ .

كل يوم تطالعي بعذر حتى تهرب مني على هذا النحو . . . متى الح
عليها النوم ؟؟ . . منذ لحظة فقط كانت تبدو امام الضيوف نشيطة مرحة
حتى اذا اغلقت الباب خلفهم بدأت تتأب وتكاسل وقد فتر لحظها ،
وتراخت اجفانها .

وتذكر انها منذ اكثر من اسبوع تصرفه عنها كل ليلة بعذر من
هذا القبيل فكان يخادع نفسه ، ويغالطها ويرغمها على تصديقها فيقبل اعذارها
برحابة صدر . وكأنه كان يفعل ذلك كله وهو لا يعي مايفعل لانه يريد
ان يثبت لنفسه انها لا تكرهه ، ولا تضيق به ، وان كانت تبدو له غير
مندفعة في حبه كما يتمنى ويشتهي .

وكان منذ تزوجها — ولما يمض على زواجها سوى سنة واحدة —
قد آلى على نفسه ان يكون معها متسامحاً ، وديعاً ، مرحاً ، كريماً لا يرد
لها طلباً ، حتى يفوز بحبها ولو ان الفارق بين عمرهما ثلاثون عاماً . . فهي
لم تتخط العشرين ، وهو قد دلف الى الخمسين . ولكنه رغم ذلك ما يزال
يثق بنفسه ، فهو لم يتقن شيئاً في حياته كاتقانه فن مغازلة النساء . وانه

لمؤمن بأن لديه من الاساليب التي اكتسبها من كثرة معاشرته لمن ما يجعلها
تدله في حبه يوماً ما ، كما سبق ان تدله الكثيرات غيرها .

ما قيمة العمر ، وعدد السنين ؟ مادام يشعر انه ما يزال شاباً يتمتع
بكل ما يتمتع به الشباب من حيوية ونشاط .

كما انه لا يزال محتفظاً بوسامة ونضارة تثيران استغراب الكثيرين من
اصدقائه ومعارفه ، لا سيما الذين يماثلونه في العمر .

ولكنه في هذه الليلة بالذات بدأ يشعر بخيبة مريرة لا يستطيع ابداً
ان ينكرها ، او يمورها . . . وتجاه من ؟ . . . تجاه المرأة التي انهى
عندها مطافه . . . واختارها بعد تفكير وروية من بين كل من عرفهن من
النساء لتكون شريكه حياته مدى ما تبقى له من العيش . . . وكان قد
أزعم فيما بينه وبين نفسه ان يخلص لها كما لم يخلص لغيرها ابداً .
فأي خيبة مريرة يمني بها الآن ؟ . . . !

ولا يدري لم مر بخاطره في زحمة افكاره المضطربة وهو ما يزال
على جلسته تلك في الظلام الدامس اسماء رجال من معارفه اخذ عليهم
انقيادهم الاعمى لزوجاتهم ، واستكانتهم لمن ، وطغيان هؤلاء الزوجات
عليهم حتى أصبحوا هزأة ! . . . وكان هو — قبل ان يتزوج — اكثر
الناس تندراً بهم ، وتنكيتاً عليهم .

ويتنبه ذهنه فجأ الى نظرة ذات معنى كان تبادلها اثنان من ضيوفه
هذه الليلة ، والى ضحكة اخفياها عندما غير رأيه في قضية تتعلق
بالسياسة مسارة لرأي سخيف ابدته زوجته . كما تذكر أيضاً كيف

عدل مرة عن مشروع هام كان قد باشر العمل فيه في قرية نائية ، لان
زوجة لم توافق على العمل فيه ، ومازالت به حتى اقنعتة بالعدول عنه ،
كل ذلك لانها لا ترغب في سكنى القرى ، ولم يسعه الا النزول مستكيناً
عند رايها — شأنه معها دائماً — .

ويتضح له انه أصبح دون وعي منه واحداً من هؤلاء الرجال
المستكينين لزوجاتهم ، الذين يتندر بهم الناس ، ويجعلونهم هزأة
في مجالسهم !! .

ولاول مرة منذ تزوجها شعر نحوها بشيء من المقت والكره ،
وراح يتساءل لماذا تكبر عليه هذه الصغيرة الحمقاء؟؟ . ولم
يضعف امامها ؟ .

أنها ليست ذات جمال نادر ، او ذكاء فارط كما تظن نفسها ،
وهو في الواقع لا يهتم بها ، ولا يتألم من أجلها فما اكثر امثالها في
النساء ، ولكنه يخشى ان تهان كرامته ، او تجرح كبرياؤه ! .

ماله يقف حيران مرتبكاً أمام هذه المرأة التافهة التي هي زوجته؟؟
هو الذي كان الى حين قريب تياها على نساء يفقنها في كل شيء ، وكن
يتهاقن على وده رغم كهواته وشبابهن ، ورغم ما عرف عن قسوته عليهن .
لا شك انه اخطأ عندما افراط في تدليل هذه الصغيرة ، حتى أصبحت
تستهتر به ، ولا تأبه له أبداً . ويتذكر حادثاً طريفاً مر به وهو في عز
شبابه ، فقد صفع مرة خليلة له غالية عليه امام الناس في حفل كبير لانها
ابتسمت لرجل كان يكرهه ويفار منه . ثم ندم على ما بدر منه من قسوة

وعدم لياقة فقرر ان يذهب اليها اذا أصبح الصباح يستغفرها ،
ويسترضيها ، فاذا هي تسبقه الى معزم عليه ، وتسعى اليه في الصباح
الباكر باكية تطلب عفوه ورضاه ، وكأنها هي المذنبه . ويتذكر كيف
عاد اليه صلفه وتبهه فلم يرض عنها الا بعد جهد طويل .
قال في نفسه :

بمثل هذا يجب ان تعامل النساء . . ومالي حدة عن الطريق ،
الست هذه واحدة من النساء ؟ .

ويلتفت نحوها ، ويهم ان يصيح بها يوقظها على نومها ليناقشها
حساباً عسيراً . ولكنه عاد فراجع ، وكظم غيظه وارجأ ذلك
الى الصباح .
قال في نفسه :

لم كل هذه العجلة والايام بيننا ؟ .
كانت العواصف ما تزال تصطرع بشدة . الرعد يزجر . المطر ينهمر .
البرق يلتمع ، ويتوقف سير تفكيره عندما يرى من النافذة العريضة التي
تواجه سريره تماماً صفحة السماء الدكناء يرسم عليها البرق أشكالاً غريبة
رائعة . فراح يتأملها ساهياً لاهياً كطفل صغير . فاذا ومضة برق هائلة
يقتحم سناها النافذة تبعبها ومضات متتالية فيضيء الغرفة المظلمة نور وهاج
وبنظرة خاطفة يلمح وجهها الذي ما يزال متجهاً نحو سقف الغرفة وقد
تقلصت قسامة بشكل يدل على انها تبكي .. ويظل في مكانه سادراً
يفكر ، ثم يتناهي الي سمعه عند هدأة الرعد صوت انفاسها مضطربة
مبهورة تتخللها شقعات مكبوتة . ويتأكد له بكاؤها .

وإذا ثورته تهدأ شيئاً فشيئاً، ويحل محلها حنانٌ واشفاق. فما كان ليخفي عليه - وهو العليم بطبائع النساء - أنها تقاسي كثيراً، فقلما تبكي المرأة في الخفاء إلا إذا بلغ منها الألم كل مبلغ. ماذا يشقيها ويؤلمها يا ترى؟؟.. لا شك أنها تخفي عنه أمراً هاماً.

وبحركة لا شعورية يضي الكهرباء. وإذا هي تخفي مسرعة وجهها بزندها، وتظل ساكنة لا تأتي بحركة، وصدرها يعلو ويهبط كأنها تعاني ضيقاً في تنفسها. ويقوم عن سريرها ويجلس على طرف سريرها، ويسألها بلهجة تكلف فيها اللامبالاة:

— مالك تبكين؟

— أشعر بصداع اليم .. قالت ذلك دون أن تتحرك، أو ترفع زندها عن عينيها.

— هاها .. الصداع لا يبكي بهذا الشكل .. ولم تتحملينه؟ الامر بسيط، حبة اسبرين واحدة تريحك منه.

— اشعر ايضاً بضيق يكاد يخنقني، ربما لا يفيدني الاسبرين ..

— اجلسي، اجلسي .. لي معك حديث .. تعالي تفاهم بهدوء وصراحة. وإذا استطعنا التفاهم، لا بد ان يزول عنك الصداع، وينجلي الضيق.

— لا داعي لكل ما تقول .. ارجوك ان تركني الآن .. فلست قادرة على الحديث معك.

— لن اتركك ابداً .. كفاني ما لقيت منك! .. وكان يقول ذلك بصوت

عال ولهجة قاسية اكسبته السيطرة على الموقف حالا . ثم يسحبها من
يدها بقوة فتستوي جالسة امامه وجها لوجه على حافة السرير ، وقد بدا
الرعب على وجهها فزاده جمالا ، وراح يحدق اليها فلم ير ابداً اجمل
منها في تلك اللحظة . كانت شاحبة اللون ، قد اتسعت عيناها السوداء وان
المخضلتان بالدموع دهشة لما حدث ، ولما سيحدث ، واثرت شعرها الاسود
الغزير على كتفها بلا انتظام . واحست ان غلالة النوم قد مالت عن عنقها ،
وانحسرت عن كتفها البضة المستديرة فتسحبها بعصبية وتحكمها حول
عنقها كأنها تحاول ان تستتر امامه ما أمكنها . ويلاحظ هو ذلك فيتم
بمرارة .. وشعر منذ تلك اللحظة كأن هوة كبيرة قد انشقت بينها
فصلتها عن بعضها وتركت كل واحد منها في ناحية .

وتمضي فترة صمت ثقيلة ، كان هو يتفرس في وجهها وهي تتحاشى
النظر اليه ، ثم يقول لها بعد ان تغلب على اضطرابه فبدا هادئاً :

— اني اشعر منذ تزوجتك انك لا تحبينني ! . وانك لست سعيدة
أبداً بالعيش معي . . لم رضيت الزواج بي اذن ؟

— انا . . لم . . وبلعت الكلمات ، وراحت دموعها تتساقط على
خديها قطرات كبيرة بلا نشيج ، وهي مطرقة الرأس بصمت محزن ،
وفمها مطبق .

— فهمت كل شيء . ولو ان فهمي جاء متأخراً جداً ! ! . . لقد
اجبرت على الزواج بي . . اليس كذلك ؟ . . انه ابوك الغبي ، ومن ورائه
زوجة ايك . لقد عرفت الماكرة كيف تغشني ، وكيف تستغل

ضعفك فتسيطر عليك يامسكينة وتجبرك على الزواج بمن لا تحبين !! . . .
ولكن هذا كله على ما فيه من ظلم لا يبعث على البكاء في مثل هذه
الساعة المتأخرة من الليل ، الا اذا كان هناك شخص آخر ترغبن فيه
وتتحرقين على لقائه .

— لا لا لا . . . احلف لك انه لا .

ويرد عليها بنزق :

— لا تحلفي أبداً . . . ولا تورطي نفسك في اثم . . . ولا تحاولي
النكران ، انه لا يجديك نفعاً . . . لست أنا ممن تخفي عنهم مثل هذه
الامور . . . أصدقيني القول ، وثقي اني سأكون الى جانبك حتى
النهاية .

وتأنس بعض الشيء بلهجتة التي تم عن الصدق ، ولكنها تظل
صامته مطرقة ترتجف من شدة الانفعال دون أن تحاول تبرير نفسها بكلمة
واحدة . كأنه تفره على ما يقول .

ويعود فيقول لها :

— لم يزوجوك منه اذن ؟ .

—

— ا فقير هو ؟ ؟ .

وتظل مطرقة ودموعها تتساقط بغزارة وفيها مطبق .

ويتأملها مشفقاً ثم يقول :

— أو تبكين كثيراً هكذا من أجله ؟ .

وتشهد من عمق ، ثم تفر زفرة لم تستطع كتمانها .

ويقول لها بلهجة حنون :

— لعلك سمعت عنه خبراً سيئاً هذه الليلة ؟

وتهز رأسها إيجاباً دون وعي منها . . . ودون أن تنظر إليه .

ويتذكر هو حديثاً دار بين الضيوف قبل انصرافهم بقليل عن طلاب جامعيين قبض عليهم وهم يقومون بمظاهرة ضد الفرنسيين وأودعوا السجن ، ويقال انهم يعذبون فيه عذاباً منكرأ .

ويتذكر كيف تلقت هي الخبر بشهقة عالية أثارت استغرابه ، ولفتت

نظر الجميع ، ثم بدا عليها وجوم وشروء ، ويسألها متلطفأ :

— لعله أحد هؤلاء الطلاب الذين يعذبون الآن في السجن ؟ .

وكأنه قد فرغ صبرها ومقدرتها على ضبط اعصابها فتضع يديها

على وجهها وتجهش بالبكاء بصوت عال .

فيتأكد أن غريمه واحد منهم . وتلوح على ابتسامة مريرة لأنه

استطاع أن يحزر ، ولأن حدسه جاء في محله .

ورغم هذه الحقيقة القاسية التي انجلت واضحة أمامه يظل هادئأ

غير مضطرب ، كأن الأمر لا يعنيه في قليل أو كثير ، حتى بدأ يعجب

من نفسه أشد العجب ، ويكاد ينكرها . . كيف استطاع أن يتلقى

هذا الواقع الفظيع بهدوء وبرود لا يعهدا أبداً في طبعه ؟ . .

لا سيما في مثل هذه المواقف ، أي تغير طراً عليه فأحاله آخر

لا عهد له به ؟؟ . .

ويتأملها وهي أمامه تبكي وتنشج ، وتبدو له كطفلة صغيرة ، حيرى
مرتكبة ، مغلوبة على أمرها ، لاحول لها ولا طول .

ويحس أن شعوره نحوها بدأ يتحول بسرعة الى حنان وعطف ،
ويود في صميمه لو يستطيع أن يهدد حزنها فيأخذها في حضنه يمسح دموعها ،
ويربت كتفها . ولكنه لم يجزوء أبداً أن يمساها كأن قوة خفية تصده عنها .
ويظل جالساً أمامها حيران مدة من الزمن لا يدري أطالت أم
قصرت . كان يستمع الى نشيجها المرير فيشعر كأن قلبه يتقطع عليها
حسرة ولوعة . . ثم يقوم متثاقلاً دون أن يفوة بكلمة واحدة ويخرج
من الغرفة ويتركها وحدها على الوضع الذي هي فيه .

وتهدأ العاصفة شيئاً فشيئاً فيصمت الرعد ، وتنقطع المطر ، وتنقشع
السحب عن سماء زرقاء فيها قمر يتهادى بين النجوم . ويتنفس الصبح عن
نهار وضاح . وتستعيد هي هدوؤها وتستوعب ما حدث لها كأنها كانت
في غيبوبة ثم صحت لتوها ، فيكبر عليها الأمر ، ويتملكها خوف شديد
وتسأل نفسها مرتاعة :

كيف استطاع هذا الماكر أن ينتزع منها هذا الاعتراف الخطير
بسهولة ويسر؟ . . لقد اغتتم فرصة يأسها وانهبها أعصابها فكان
له ما أراد . . .

الى م سينتهي أمرها يترى؟ . .
وراحت تصني الى صوت خطواته وهو يتنقل بين غرف البيت ، والى
صوت حركة متوالية في غرفة الزينة المقابلة لغرفة النوم ، والى صرير
أبواب الخزان والادراج وهي تفتح وتغلق .

ماذا يعمل ياترى ؟ . .

ليت لديها ولو قليلاً من الشجاعة لمجاہتہ وسؤالہ عما يفعل .
ثم يتنأهى اليها صوت خطواته على الدرج ، ثم تسمع صرير باب
البيت الخارجى وهو يفلق بشدة ، وتتيقن أنه برح البيت . وتخرج من
غرفتها وتسرع الى الشرفة وتطل منها فتلمحه وهو يركب سيارته
وينطلق بها .

تساءلت :

الى أين ياترى ولم تشرق الشمس ؟ ؟ . .

لا شك أنه ذاهب الى أبيها ليخبره بكل ما حدث بينها ، فياهول
ما ينتظرها ! ! . .

وتعود الى غرفتها مضطربة ، حزينة يائسة ، وترى في طريق عودتها
على احدى المناضد رسالة تركها لها فتتناولها وتفتحها بسرعة وتبدأ
تقرأ ، ثم تعيد ما تقرأ بدهشة واستغراب ، وتكاد لا تصدق
ما تقرأه عيناها .

أحقاً ياترى مايقول ؟ ؟ . . انه الآن ماض الى مشروعه الذي كان
يعمل فيه في القرية النائبة . وسيظل ماحدث بينها هذه الليلة سراً
مكتوماً حتى عن أبيها وزوجه ، لأنه يعرف تماماً ما سيلحقها من ضيم
اذا عرفا حقيقة أمرها . تلك الحقيقة التي يراها هو حقاً مشروعاً لها ،
ومن الظلم أن تحرم منه . وسيقبها في بيته وتحت حمايته — أن أرادت —
ريثاً تدبر أمورها كما يحلوها ، لأنه لن تربطه بها بعد اليوم رابطة تجيز

له التدخل في شؤونها الخاصة . وسيعيد اليها حريتها ساعة ترغب وتريد ،
وسيكون لها خير نصير .

ويحتم رسالته بجملة بدت لها أول الأمر كلغز اذ يقول :
أنا رجل كهل . تستطيع امرأة مثلك أن تسعدني ، ولكنها لا تستطيع
أبداً أن تشقيني ، ولذا فأنا أحمد الله الذي سخر لي ومضة برق خاطفة
أضاءت لي حقيقة أمرك ، وكانت معواناً لي على كشف سرّك الذي تخفيته
عني وتشقين به ! . . وأحمديه أنت أيضاً لأنه أومضها في ضميري فأنتهيت
الى هذا القرار الذي ارتاحت اليه نفسي ، واطمأن قلبي ، ولن احيد
عنه أبداً مهما قال الناس فيه .

بينما كانت هي تقرأ ، وتعيد ماتقرأ في دهشة واستغراب . كان هو
ماضياً في طريقه ، تنهب سيارته الارض نهياً . وقد ربض خلف مقودها
شامخ الرأس ، متعالياً ، راضي النفس ، يبدو لعينه كل شيء جميلاً ،
ويشعر معتزاً بأن الغلبة كانت له أيضاً على المرأة في هذه الليلة العاصفة
بكل شيء ، كما لم تكن أبداً .

كوفي حكيمة

سألت السيدة (س) صديقتها قائلة :

— كيف كانت مهرتكم ليلة عيد رأس السنة الجديدة ؟
لم تحدثيني عنها أبداً . . . أنا التي حرمت منها لأن عجوزاً من قريبات
زوجي البعيدات لم تجد وقتاً تموت فيه انسب من تلك الليلة . لا أدري
الى متى سنظل مقيدين بهذه التقاليد البالية وما فيها من مجاملة كاذبة ؟! ..
— أؤكد لك أننا سنظل مقيدين بها مادامنا جناء ! . . . أي
كارثة كانت ستقع لو أنك وزوجك تجاهلتما عاداتنا وأتيتما الى تلك السهرة
التي لانحظي بها الا مرة في كل سنة .

لقد افتقدنا كما كثيراً ، وكانت والله سهرة ممتعة حقاً . أقول ذلك
رغم أنني لم أرقص أبداً ، ولم أترشح من مكاني ، وكنت وزوجي أول
المنصرفين منها .

وتحملك السيدة (س) بضيفتها مستغربة وتقول :

— ومع ذلك تقولين أنها كانت ممتعة ؟ ؟ . . . هذا لغز يا عزيزتي ...
ولكن لا يصعب على من كانت مثلي حله . قولي لي يا شيطانة الى جانب

من كنت جالسة ، وانا سأحل اللغز فوراً . وترد عليها وهي تضحك :
— أخشى اذا قلت لك ذلك ان يزداد اللغز تعقيداً . كنت الى جانب
رجل كهل ، ماعرفته الا تلك الليلة ، ولو رأيتك لبدا لك سمجاً ثقيلاً .
— اعترف انني عاجزة عن الحل ، فهاتي القصة بتمامها .

— كنت أعد نفسي لسهرة فريدة ممتعة استقبل بها الامام الجديد ،
وكل شيء كان يجري كما اشتهي تماماً ، كنت راضية كل الرضى عن
ثوبي الجديد ، وعن تصنيف شعري ، وعن ثلة الاصدقاء التي اخترناها
أنا وزوجي للسهر معنا ، وعن موقع مائدتنا الذي جاء مشرفاً على حلبة
الرقص ، كما ارغب تماماً . ولكن صديقنا عزيز أفسد علي جمال ذلك كله
حين جاء متأخراً وقد اصطحب معه رجلاً كهلاً قدمه الينا قائلاً :

— خالي سعيد بك . . . جاء اليوم مصادفة من مزرعته فأحيت ان
ادعوه الي السهرة معنا . هل تصدقون انه كان ناسياً ان الليلة عيد رأس
السنة الجديدة هذا الذي كان الى أمد قريب من رواد النوادي ،
ومن المجلين في مثل هذه السهرات . ولكن المزرعة على ما يبدو لي قد
شغلته عن كل شيء .

ويجيب الرجل بصوته الاجش :

ارجو الا افسد على الشباب سهرتهم . . . ماذني انا ؟ صديقكم اراد
لكم ذلك . ويتسم ابتسامة عريضة وهو يستمع الى عبارات المجاملة
تنصب عليه من كل جانب . وكا زوجي اكثر المجاملين حماسة حين تخلي
للضيف عن مكانه الذي كان الي جانبي تكريماً له . ولم يخف علي ابدا انه
اغتتمها فرصة ليجلس جانب سلوي في اقصى المائدة . وانت تعرفين سلوي !.

ولا اظنه يجهل ان في ذلك ما يغيظني ويزعجني . فمن عيوبي التي لا انجح في التغلب عليها ابدا هو عدم استطاعتي كبت عواطفني التي تبدو جلية على وجهي ، وكثيرا ما تسبب لي مآزق حرجة .

واتجاهل وجود الضيف الى جانبي . واطل صامتا اصوب الى زوجي نظرات تعبر عن غيظي . وكأنني اقول له :

أتركني الى جانب هذا المعجوز السمج ؟ . ولا بد لي من مجاملته طول السهرة بينما تذهب انت لتلهو مع سلوى كيفما تشاء .

وتعزف الموسيقى ، ويحجى زوجي يدعوني الى الرقص كأنه يريد ان يتلافى ما وقع . وارضى ممتذرة بالعدر التقليدي : ان قدمي تؤلمني من ضيق حذائي الجديد . ويتقبل العذر فورا دون اي اعتراض مما زاد في غيظي ، وينصرف من امامي غير مبالي بي ، كأنه فرح عندما تخلص من واجب ثقيل عليه كان يتحتم عليه اداؤه . ويعود فيدعو سلوى ، وراحا يرقصان وكأنهما منسجمين تماما ، ورحت وكأنني اتمزق غيظا لاسيما حين كنت يضمها الى صدره بحنان وهي تصوب الي عينيه نظرات غنج وافتتان
وتحين مني التفاتة الى المائدة التي كنت احتل اول كرسي عليها فاجدها حالية لقد قام الجميع قصصون وبقيت وحدي مع الضيف الكهل . وقد لاحظت انه كان يراقب حركاتي بفضول ، فشعرت بشيء من الارتباك ، ولم اجد مناصا من التحدث اليه ولو بوضع كلمات فاللباقة تتطلب مني ذلك فهو ضيف مائدتنا على كل حال فقلت له :

— تحلولي احيانا الفرجة على الرقص اكثر من المشاركة فيه .

ويتسم وهو يحتسي شرابه ابتسامة غامضة لا افهم منها شيئا . كنت اتوقع ان يقرني على رأيي هذا كما تقضي بذلك المجاملة ولكنه لم يفعل . ورحت اتفرس في وجهه الذي بدأت آلفه اكثر من ذي قبل ، فأرى عينين واسعتين تنبث منها نظرات جريئة تدل على قوة شخصه ، وأنفأ اقنى يضفي عليه شيئا من الكبرياء ، وشعرات بيضاء منتثرة على فؤديه تزيد سمته دكنة ، انيق في غير تكلف ، وضع كأسه على المائدة بتؤدة واشعل لفافة ثم اقترب مني لأسمع كلامه الخافت رغم صخب الموسيقى وقال :
— انا على عكسك ياسيدي تماما . لا اطيق الفرجة ابدا . وقد هجرت هذه السهرات رغم ولعي بها وانزويت في مزرعتي منذ تنهت ذات ليلة فوجدتني لا اصلح الا متفرجا ! . . فضحكت وقد عجبني حديثه وقلت له :
— لعك كنت واهما . قال :

— لم اكن واهما مع الاسف ! . . كان هو الواقع ! . . دعوت الى الرقص ليلتئذ سيدة كنت معجبا بها فاذا هي تعتذر لي كما اعتذرت انت لزوجك قبل قليل . وانا اعرف تماما ان الحذاء الضيق لا يعيق امرأة عن الرقص مع رجل ترغب فيه ، فانصرفت عنها مقهورا . ودعوت اخرى وكانت كريمة لبت الدعوة وباليتها لم تلبها ! . . كانت ترقص معي ولكن ذهنها كان منصرفا الى غيري ، وكانت عينها تتابعانه بلهفة ، ولست بمن يخفى عليهم مثل ذلك ! . . .

فما ان انتهت الرقصة حتى خرجت من النادي وانا مصمم على الاعداد اليه ابدا . لقد استسلمت في الوقت المناسب . الاترين ان هذه ميزة ؟ . .

قلت : ضاحكة .

— لاشك ابدا انها ميزة عظيمة فيما اذا اتت في اولها .

قال :

— قلائل جدا الذين يعرفون اولها ويرضخون للواقع ويقدورون الوقت المناسب للانسحاب . اما أنا فمنذ ذلك الحين غيرت نمط حياتي ، وسرت على نمط جديد يتفق مع تقدمي في العمر . لقد اعتدت ان اكون كذلك دائما ابدا .. .

كنت استمع اليه وانا شارة الذهن ، اختلس بين حين وآخر نظرة الي حلبة الرقص لاراقب زوجي . فقد خيل الي انه كان يحاول ان يتعد عن مكافي ما يمكنه ليرقص مع سلوى كما يحلوه . فكنت امط رقبتى لاراقبها . ولاحظ الرجل الكهل ذلك فقال لي :

— اتسمحين باسداء نصيحة اليك قد تفيدن منها .

قلت :

— اشكرك مادمت تسدى النصائح هكذا لوجه الله .

قال :

— بل اسديها الي كل جميل يتجلى فيه ابداع الله .

فابتسمت له وقلت :

— اني مصغية اليك ! .

قال وهو يشير الي باصبعه بلهجة قاطعة :

— اما ان ترقصي ، واما ان تديري ظهرك الي حلبة الرقص فلاتبالي

ولا تهمني بما يحدث فيها ابدا .

قلت بلهجة قاسية :

— ومن قال لك اني ابالي او اهتم ؟ ؟

قال :

— معذرة اذا اسأت اليك . ورفع كأسه و اشار اليها قائلا :

— قاتلها الله . تجعلني احيانا اتجاوز حدودي ، واتداخل فيما لا يعنيني .

واشعر ان لهجتي كانت قاسية اكثر مما ينبغي فقلت له مبتسمة لا تلافى

ما بدر مني :

— اريد ان اعرف فقط ما الذي جعلك تعتقد اني مهتمة بما يجري في

حلبة الرقص؟؟ هل يبدو علي شيء من هذا!؟

قال وقد لمعت في عينيه نظرة خبيثة :

— لقد افنيت عمري حور امثال هذه الموائد ، فما يخفى علي

شيء مما يجري عليها .

وينفت دخان سجارته ويتأمله شاردأ كأنه يتأمل ماضيه المزدحم

بامثال هذه الصور .

وادرك اني حيال رجل ذكي قارح ، كثير التجارب يستطيع ان

يدرك بفراسته كل ما يدور في خاطري كأنه يقرأه في كتاب . فما

يجدي معه نكران او تمويه ، وآثرت ان ادير الحديث الى مزاح فقلت :

— كأنك والله منجم او عراف تقرأ ما يوسوس في الصدور .

قال :

— وما المنجم او العراف يا سيدتي الا رجل دقيق الملاحظة كثير

التجارب وقد اكسبه ذلك كله فإساسة صادقة ومعرفة بما يدور في
عقول الناس وتأكدي انه لا يختلف عن غيره الا قليلاً . فالإنسان هو
الإنسان بغرائزه وطباعه مها اوغل في المدنية فما تختلف امراً: هنا
- في مثل موقفك هذا - عن اخرى في مجاهل افريقيا او متاهات
الاسكيمو ، سوى ان هذه اقدر من تلك على كظم غيظها وتمويه غيرتها،
تكز على اسنانها ، او تمزق مندبيلها باصابعها تحت المائدة ، بينما تلك تعمل
او تضرب خديها او تشد شعرها . وكل واحدة منها لو اتبع لها ان
تنشب اظفارها في عنق غريمها لما ترددت أبداً .

قلت :

- لقد خوفتني والله من نفسي .

قال :

- الحقيقة مخيفة دائماً وبشعة ، ولذا نحاول أن نغلفها بما يسترها
أو نلونها بالوان نخدع بها أنفسنا .

قلت :

- لم تنصحنى مثلاً أن أرقص مع من انسجم معه حتى أثير غيره
زوجي فانتقم لنفسي عوضاً من أن أدير ظهري الى حلبة الرقص وأترك
له المجال يجول فيه كيفما يشاء ؟

قال :

- اياك ان تفعلها . . . انها طريقة قديمة عقيمة وقد ثبت فشلها ، واذا
اتبعتها فسيظل كل واحد منكم سائراً في طريقه ، ولا بد ان يأتي يوم
تبعد فيه الشقة بينكما وتجدان انكما تعيشان في جو من الخداع ، والغش ،
واللامبالاة وهذا شر ما يتلى به زوجان .

قلت :

- يبدو لي كلامك جوهرياً . سأعمل بنصيحتك . وادير ظهري
الى حلبة الرقص واصبح مواجهة له فينتسم لي بخنان اب ويتمول :
- حسناً فعلت . حاولي دائماً الا تكوني كأمنية تحققت ولم تعد شيئاً .
ان الحب ياميدتي لا يتعدى قضية العرض والطلب . أي كلما ازداد العرض
قل الطلب .

قلت :

- هذا صحيح والله . واطل صامنة افكر . فقال مبتسماً :
- بماذا تفكرين؟ ألم تعجبك الخطة ؟ .

قلت :

- بل اعجبتني كثيراً . ولكنني اسائل نفسي كيف تورطت
بالحديث معك - ولما يمض على تعارفنا الا ساعات - فبحث لك بأمرأنا
احرص ما اكون على كتمانها حتى عن اقرب الناس الي ؟ .
فقهره ضاحكا وقال :

- اعجبتني صراحتك .. لا تعضي على نفسك ، ولا تفرطي في لومها .
انت لم تبوح لي بشيء ، انما أنا اكتشفت ذلك كله . ألم أقل لك
انني افنيت عمري حول هذه الموائد فما يفوتني شيء مما يدور حولها .
وتحين مني التفاتة لا شعورية الى حلبة الرقص فاذا هو يقول لي متعللاً
ويشد على الكلمات :

— لا تفعل ذلك أبداً . اسمعي من مجرب مثلي . ستفسدين كل شيء .

قلت :

— ان ماتطلبه مني هو فوق طاقتي .

قال :

— اعطيك بعض الحق . . . ان نمط هذه الحياة العصرية الجديد

الذي نعيشه اليوم معقد الى حد بعيد . وهو دخيل علينا كما تعلمين . منذ سنوات قليلة فقط بدأنا نمارس الرقص ، ونحتفي بمثل هذه الاعياد . فلا تحسبي هذا سهلاً . اننا نحتاج الى امد طويل ريثما يتأصل فينا ، وعندئذ نستطيع ان نعيشه بعفوية وسليقة ، وحتى نصل الى ذلك الحين نحتاج الى كثير من الصبر والسيطرة على الاعصاب واللباقة في التصرف . وهذا كله يتطلب تمريناً ودراية فنحن لم نعهد عليه امهاتنا وجداتنا ، وانت لاتزالين صغيرة ولا بد أن تحذقي ذلك كله يوماً ما ، ولكن بعد ان تمرى بتجارب قاسية ، ولذا احببت ان اختصر لك السبل .

ولكن اسمحي لي الآن بسؤال صغير : أنا لا أستطيع ان افهم ان واحدة مثلك لها وجه يوحى بالريبع وازهاره وصفائه ، كيف تهتم أو بالاحرى تغار من تلك التي تشبه حقلاً اسمر جافاً بعد ان لملم الحصادون خيراتة ؟؟ . .

فضحكت وقلت له :

— هذا احلى مديح سمعته في حياتي . لا شك انك تستمد

تشابهك الحلوة هذه من جمال مزرعتك التي هي رائعة حتماً .

قال وقد امت في عينيه نظرتة الخبيثة :

- قولي الصدق . . أيها اعجبك أكثر مديحي لك ؟ أم ذمي
لغريمتك ؟ ..

قلت :

- أف ! . . ما أصعب الحديث مع إنسان ذكي مثلك . ما يستطيع
محدثه ان يخفي عنه شيئاً يخطر بباله . ان هذا يبعث على الارتباك .
فضحك وقال :

- واحدة بواحدة ، ان في قولك هذا اجمل إطراء سمعته
في حياتي .
قلت :

- والى متى سنتبادل المدائح هذه الليلة ؟؟ وتقهقه ضاحكين . .
شعرت حينئذ بيد زوجي تلقى على كتفي ، وسمعت صوته يقول لي :
- اضحكونا معكم .
قلت بلا مبالاة :
- ياليت ذلك ممكن ! .

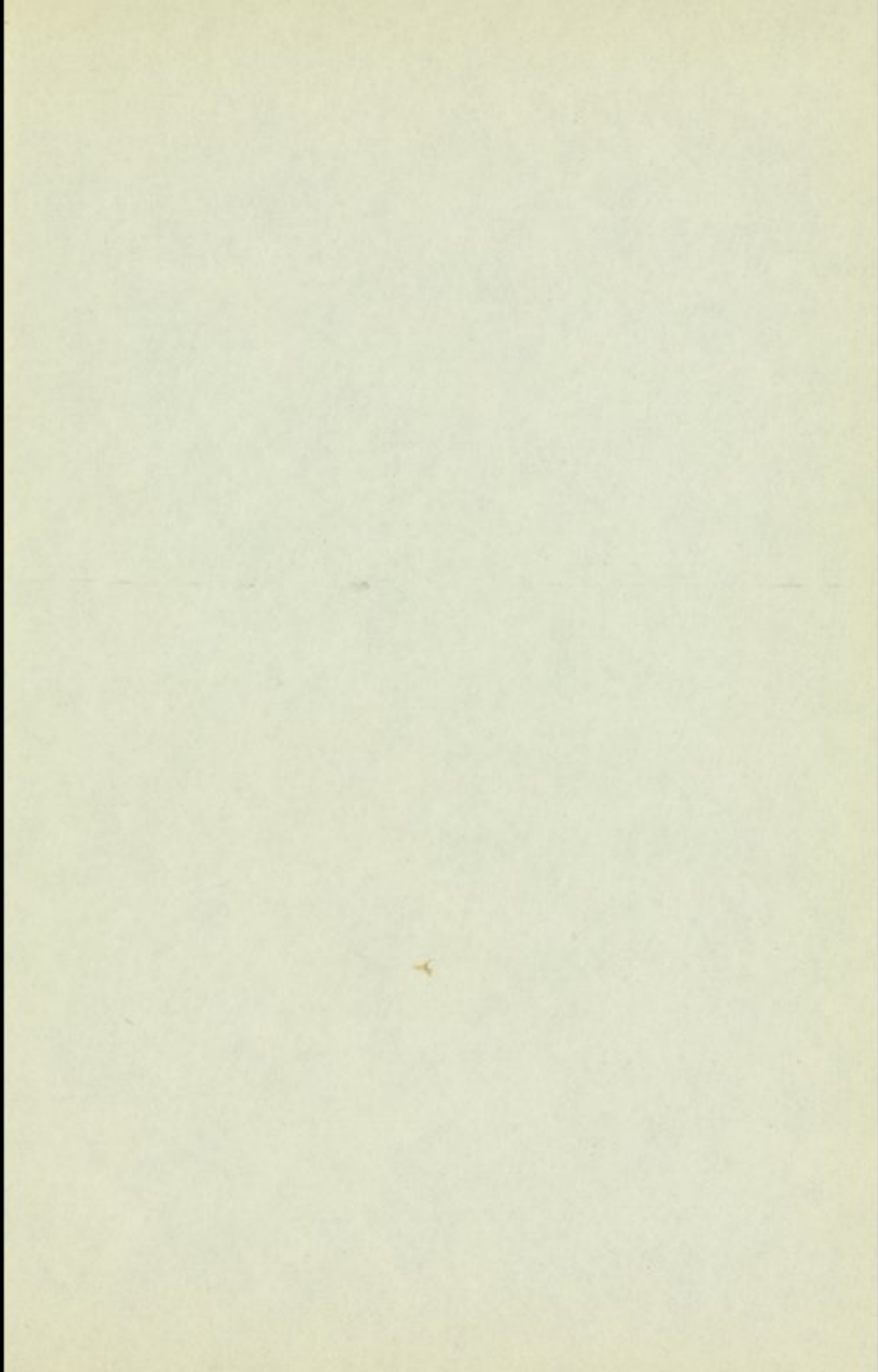
وينظر الي مستغرباً ويتابع طريقه الى مكانه الأول . واطل مكاني
اثر مع جاري الكهل الذي بدا لي انه جذاب ، ويبدو علينا انسجام
واضح . وأرى ان زوجي بدأ يراقبنا من بعيد . وإذا الموسيقى تعزف
الرقصة المفضلة لدي ، ويعود زوجي ويقول لي بلهجة عاتبة :
- حتى هذه لا ترغيبين في رقصها أيضاً ؟ وابتسم له ابتسامة هادئة

كما دتي عندما أكون سعيدة راضية وأقول له :

- أفضل البقاء هنا . ارقصها مع غيري . فراح يتفرس في وجهي
كأنه ينكر منه شيئاً ثم بنصرف ليدعو غيري . واعدود الى الثرثرة مع
جاري الكهل واعمل بنصيحته فلا التفت الى حلبة الرقص أبداً . وتنتهي
الرقصة ، وتصمت الموسيقى ، وإذا زوجي يعود الي والضيظ باد في
عينيه ، ويقول لي بلهجة لاتسمح بالجدل أبدأ :

- قومي . لنعد الى البيت ، اني تمب جداً . وقبل ان يسمع
جوابي بدأ يودع الرفاق الذين راحوا يتراضون على انصرافنا باكراً
ولكنهم لم يستطيعوا ان يثنوه عن عزمه أبداً . ويفتم الرجل الكهل
فرصة ويقول لي :

- ما أسرع ما نجهت خطتنا . ويهمس وهو يودعني :
لاتشتطي كثيراً ، كوني حكيمة .



بوران

قال كبير الوزراء وهو يتحدث الى قهرمانة قصره المعجوز :
- اسمعي يا هـيـذه . سأكل اليك من اهمني امره ، وعهدي بك
الدراية والفطنة .

اجابت القهرمانة : أنا عند حسن ظنك بي يامولاي .

قال : يسؤني جداً أن تسهق ابنتي السمع الى كل ما يدور في مجلسي
هذا من أغان وأحاديث ، ولقد خيل الي البارحة اني سمعتها وهي تضحك
من وراء الستور عندما روى أحد الظرفاء نكته فاحشة ، ما أحب لها
سماعها ، ولسمك نهيتها فلم تنته ولم ترعو . وقد لا يخلو مجلسي من حديث
أمثال هؤلاء الظرفاء ، او مما يقوله شعراء ما جنون ، او جوار
خليعات ، مما اربأها ان تسمعه .

قالت القهرمانة : ليعلمن مولاي بالا ، فوالله ما حوت بغداد فتاة
تضاهي سيدتي ابنتك في رجاحة العقل ، وسجوا الخلق ، وان كانت
تهوى سماع ما يدور في مجلسك هذا فماذاك الا لولها بالأدب والشعر ،
وشغفها بالألحان والغناء .

قال الوزير : مهايكن الامر ، لقد قررت اسكنها في قصر قريب مني ،
يطال من جهة على ذلك الزقاق الضيق الذي يؤدي الى دار الخلافة ،
ويشرف من جهة أخرى على دجلة ، وان لفيه بستاناً صغيراً مستجد فيه
سلوتها ان ضاقت بها حجرات الغرفة ولتاخذ معها ماشاءت من قصري
هذا من التحف ، والالطاف والنقائس ، ولتصاحب معها من شاءت من
الجواري والقيان والعبيد . وقد امرت القيم على صندوقي ان يصرف
لها ماشاءت من المال . فكوني انت حارسها الأمين وزيني لها اهذا
الامر ، وهيبه لها بحمكتك ، رقولي لها اني ما اردت بذلك الا الخير
والراحة لها . فأنت تعلمين انها حبيبة الي ، عزيزة علي . وسأعرج على
بيتها كلاً غدوت الى دار الخلافة او انصرفت منها . قالت القهرمانة :
ليطب مولاي نفساً . وليعتمد علي فيما وكل الي .

حاولت المعجوز كثيراً لتجعل الصبية راضية عن مسكنها الجديد ،
وجهدت في سبيل ذلك ما وسعها الجهد ، فلم تفلح أبداً ، فليس من شيء
يمدل في نظر الصبية مجلس ابها الذي كانت تنتظر مواعده متلهفة لسماع
الشعر يرويها ناظموه ، والألحان يغنيها واضعوها ، وللتنكات يتندر بها
مؤلفوها او ناقلوها . حتى لكأنها ، وقد حرمت من ذلك كله ، قد
اخرجت من جنات النعيم .

قالت القهرمانة ذات صباح ، وقد رأته ان السأم والممل قد بدأ ينالان
من صبيتها :

- ما رأيك في زهرة على ضفاف دجلة تروحين عن ، نفسك بعض
الشيء برؤية الزهر والنهر .

قالت الصبية : اني ادركه ما يدور في نفيك ياخاله فأنت ما برحت
تودين ان تهبيء لي ما اجد فيه المزاء عما فاتني في قصر ابي . ولكن
ثقي انك لن تبلغي ما تريدن ابدا .

فحو قلت المعجوز واسترجمت . ثم فكرت واممنت في التفكير وعادت
تقول : اسمعي يا بنيتي ، جملني الله فداءك ، لقد ارقت بالامس ارقا
شديدا حتى كاد يمضي الهزيع الاخير من الليل ولقد سمعت جلبة وضجة
في هذا الزقاق الضيق ، فنظرت من الشرفة فرأيت بعض الناس يمشون
وعليهم سياء الخير والنمة قتلت في نفسي لاشك انهم من زمان الخليفة
آثروا اختصار الطريق فمروا من هنا وخطرت لي امر ليله يروق لك .
قالت : هات ما عندك .

قالت المعجوز : ما علينا لو اتينا بزنبيل كبير ففرشناه بالديباج والدمقس ،
ثم ربطناه بأربعة جبال ثخينة ، فاذا كان الهزيع الاخير من الشرفة ،
وانا ضامنة لك انه لو رآه احد هـ : لاء الظرفاء ، او الندماء ، لقعده فيه
فرفعناه الينا ، وفيهم ممن لا تحلمين برؤيته في مجلس ابيك ، فاذا اعجبنا
به سامرناه حتى الصباح ، ثم اخذنا عليه العهد والمواثيق ليكنم امرنا ،
وان لم نعجب به ضحكنا منه واخلىنا سبيله .

فانفرت اسارير الصبية ، وقالت للمعجوز :

ـ يالها من حيلة تفتق عنها ذكاءك الفارط .

ولكن اما من خطر علينا ؟؟

قالت المعجوز : انا اكفيك كل خطر .

وما كان آخر الليل حتى كان الزنبيل المفروش بالديباج قد تدلى من
من الشرفة وقد شدت اليه اربعة حبال، وقد وقفت اربع جوار يرقبونه
من على . وكان الخليفة قد استدعى في تلك الليلة احد ندمانه المغنين ،
ثم عرض للخليفة ما جعله ينصرف عنه ابعض شأنه فجلس ينتظر حتى انقضى
النصف الاول من الليل ، فأثر الانصراف الى داره ، وسلك الزقاق
فاذا هو يرى زنبيلامعلقا بأربعة حبال ، وقد شدت الى الشرفة ، فقال في
نفسه:

ان لهذا السببا ، وان له سرا .

واقام مدة يتروى ويفكر ثم قال: والله لأتجاسر ، ولأجلس فيه
كأنا ما كان

ولما جلس في الزنبيل احس به يرتفع ، حتى انتهى الى الشرفة واذا
بأربع جوار يقلن له . انزل على الرجب والسعة . فنزل فاذا دار نظيفة
حسنة التنظيم والترتيب . ثم ادخل مجلسا فيه من ضروب التحف ،
وصنوف النفائس وما لم يرمثه الا في دار الخلافة فتملكته الخيرة والدهشة .
واذا هو يشمر بجلبة وضجة .

ويرى ستورا ترفع في ناحية من نواحي المجلس ، ووصائف يتسابقن
في ايدي بعضهن الشمع ، وبعضهن المجامر بيخرن منها العود والند ، تتوسطهن
صبية كأنها تثمان من عاج تنهادى بينهن كالقمر بين النجوم بقديزرى بالغصون .
فلم يتالك عند رؤيتها ان ينهض فقالت - مرحبا بك من زائر اتى وليست

تلك عادته .

ورفعت مجلسه عن الموضوع الذي كان فيه ، واخذت ترحب به وتجامله . ثم سألته عن بلده ، وصناعته ، ومن اي الناس . هو فأجاب ان يضلها فقال : انه من بغداد ، وهو تاجر ومن امناء الناس وأوساطهم . ثم سألته عن روايته للشعر ومعرفته بأخبار العرب ، فقال لها :
- جمعت فداك ان للداخل دهشة . وبني انقباض . ولكن بتدئين انت ، فالشعر يأتي بالذاكرة .

قالت : لمعري لقد صدقت . وراحت تروى له قصائد من عيون الشعر وتحديثه بأحلى النوادر وأعجبها فدلته ذلك على انها ادبية ذواقة . الى ان قالت : له ارجو ان يكون قد ذهب بعض ما كان بك من الحصر والانقباض والحشمة . فهاهنا ما عندك .

فراح بدوره ينشدها اروع ما حفظ من الشعر ، واحسن ما عنده من نوادر القصص وهي مصغية اليه ، مستحسنة لكل ما يأتي به الى ان قالت :
- ما توهمت ابدا ان في عوام التجار ، وابناء السوقه واحدا مثلك فان ماسمته منك لما يتحدث به عند خليفة او امير .

فقال امعانا في تضليلها : جمعت فداك ان لي صديقا ينادم احـد الامراء . وهو حسن المعرفة ، كثير الحفظ فاذا تخلف عن صاحبه ذهبت اليه فلربما اخبرني من هذه الاحاديث شيئا فحفظته . قالت : يجب ان يكون هذا لمعري لقد حفظت فأحسنت الحفظ . ثم قالت : جارية هات ما عندك .

فقدم ايها افخر الطعام والشرب في احسن آنية . فاصابا منه
ماشاء . ولما اتها منه .

قالت : - اني اراك كاملا ، وانك في الرجال لفاضل ، وانك لوضي
الوجه ، مليح الشكل ، بارع الادب وما ينقصك الا شيء واحد .
فقال : وما هو ياسيديتي دفع الله الاسواء عنك قالت : لو كنت تحرك
بعض الاوتار ، وترنم ببعض الاشعار .

فخاف ان غنى ان يفتضح امره ، فقال : والله قديما اشتهيته . .
وطالما كلفت به وحرصت عليه فلم ارزقه . وكلما تقدمت في طلبه كنت
فيه ابرد حتى اعرضت عنه . وان في قلبي من ذلك لحرقة ، وان لمستهتربه
مائل اليه . . وما كره ان اسمع في مجلسي هذا من جیده شيئاً لتكمل
ليلتي ، ويطيب عيشي . . .
قالت : كأنك قد عرضت بنا .

قال : لا والله ما هو تمرىض وما هو الاتصريح .
فقالت : يا جارية . . . العود . فما ان جستته حتى ظن ان الدار قد سارت
من فيها . ثم أخذت تغني بعض الحانه وتقول له :
كم ابداع فلان بهذا اللحن . . . وتسمي اسمه .
فيقول لها : او هكذا اوتي فلان من الحدق ؟ . . فتقول :
نعم واكثر من ذلك .

ومازالا على حالهما تلك حتى لاح الفجر . فبجاءت العجوز وقالت :
اي بنية ان الوقت قد حضر . فاذا شئت فانهضي ، فلما سمع مقالها نهض .
فقالت : عزمت ؟ قال : أي والله .

قالت : تصحبك السلامة . عليك ان تستر ما كتنا فيه ، فان المجالس
بالامانة .

فأجاب : جعلت فداك . واحتاج الى وصية ؟؟.. ثم ودعها، وودعته
وفتح له باب في ناحية على الدار الى طريق مختصرة وبادر الى بيته . وظل
بعدها ثلاث ليال يوافيها الى مجلسها هذا ، ويخلف مواعده مع الخليفة معرضاً
نفسه لغضبه وقصاصه . وفي الليلة الثالثة قالت له عندما رآته :
- اضيفنا ؟؟ .

قال : نعم قالت مازحة : اوجعلتها دار مقام ؟ .
قال : جعلت فداك حق الضيافة ثلاثة ايام فاذا عدت بعدها .
فانت في حل من دمي .
قلت : والله لقد أتيت بحجة .

ثم جلسا وأخذوا فيما كانا فيه من الانشاد والحديث والغناء الى ان
حان الوقت ، وجاءت المجوز . فقال لها وهو منصرف : اتأذنين في
ذكر شيء خطر بيالي؟ قالت قل : ما بدا لك .

قال : اني أراك ممن يعجب بالغناء والانشاد أشد العجب . ولي ابن
عم هو أحسن مني وجهاً ، راطرف قدا ، وأكثر أدباً واغزر معرفة .
وأنا تلميذ من تلاميذه وحسنة من حسناته ، فاذا سمحت ايتك به غداً
قالت : طفيلي ومقترح . . . أما كفالك ان سمحنا لك بثلاث ليال حتى
طمعت ان تعود ومعك آخر .

فقال لها : جعلت فداك ذكرته لتكوني انت المحكمة فاذا اذنت

وأردت ، وإلا فلا اذكره .

فقلت : إذا كان ابن عمك على ما وصفت فأتنا به غداً . فقال :

سماً وطاعة .

ثم ودعها وانصرف الى منزله . وما كاد يستقر به المقام حتى فاجأته
رسل الخليفة ومهمهم الجناد . فسحبوه بحالته تلك الى دار الخلافة . فاذا
الخليفة جالس على كرسي وسط الدار مقتظاً حرداً . فلما رآه قال له :
- اخرجوا عن الطاعة ، واخلاقاً للموعود ؟ . . .

فقال : لا والله يا أمير المؤمنين . انه كانت لي قصة احتاج فيها

الى الخلوة .

فأوما الخليفة الى من كان واقفاً ، فتنحوا ، فقال له :

- كان من خبري كذا كذا . . . والله لا يمكنني يا أمير المؤمنين ، ان

اصف لك من أي احوالها أعجب ؟ أمن جمالها ؟ أم من ذكائها ؟ أم
من حسن أدبها ؟ أم من جودة ضبطها للتريب ؟ أم من اقتدارها على
النحو ، ومعرفتها بأوزان الشعر ؟ أم من ضبطها للألحان وحسن ضربها
على الاوتار ؟ ولما وصل الى هنا قاطمة الخليفة قائلاً : ويحك يا هذا . . .
كيف لي بمشاهدة ماشاهدت ؟ . . .

فقال : الله قد فكرت في قصتها ، وعلمت انك ستطالبني بذلك

فاحتلت للأمر وذكرت لها ان لي ابن عم ، واسهبت في تعداد فضائله
ومقدرته على الغناء حتى أذنت بمجالسته ، وسنصير اليها الليلة إذا شئت .
فقال الخليفة : وكيف لا أشاء . ومضى النهار . فلما ان مضى من

الليل هداة جعل الخليفة يقول :

أما حان الميعاد ؟ . . وكان القلق بادياً عليه الى ان جاء الوقت
وسارا اليها .

وقال المغني للخليفة وهما في طريقهما اليها :

يجب ان تظهر بري بحضرتها واكرامي ، وتطرح نحوه الخلافة ،
وتجبر الملك . بل كن وكأنك تبع لي .

والخليفة يقول : نعم . . او احتاج ان توصيني ؟ .

ثم قال : ويحك يا هذا فاذا قالت لي غن فما انا صانع ؟ .

فضحك المغني وقال ! عندما نصل الى غنائك سأ كفيه أنا .

ولما وصل الى الزقاق الضيق رأيا زنبياين معلقين . فقعد كل واحد
في زنبيل . ثم سارا الى الشرفة ، وانتهيا الى المجلس . فاخذ الخليفة
يتأمل الفرش ، والدار ، والزبي ، ويتعجب كثيراً ، ولما اقبلت الصبية
بين جواربها بهت من حسنها ، فقالت : حيا الله ضيفنا ، وابن عمه . ولكن
ما انصفت ابن عمك ، حيث اجلسته دونك فهو جديد ، وانت صرت
من اهل البيت .

فنهض الخليفة حتى صار في صدر المجلس .

ثم اقبلت عليه تؤانسه ، وتناشده الشعر ، وتمازحه وهو يأخذ معها
في كل فن ، ويفحما . ثم قالت المغني : ان ابن عمك فوق ما وصفت
وها هو من عوام التجار ايضاً ؟

قال : نعم نحن لا نعرف الا التجارة .

قالت : وانكما لغريبان فيها .

ولما احضر الشراب . قالت للمغني : موعذك .

قال : انه لفاعل ، ولكن حتى نسمع شيئاً .

فأخذت العود وغنت بعض الحانه . واخذ الخليفة في الشراب ولما
ولما نال منه كفايته ، التفت الى المغني ونظر اليه كما ينظر الاسد الى
فريسته ثم قال له : غن لحنك الفلاني .

فقال : لبيك يا امير المؤمنين . فمرت انه الخليفة فما ارتبكت ، ولا
اضطربت بل انكفأت بأدب وجلست خلف . كلة كانت مضروبة هناك .
ثم قال الخليفة للمغني : سل من رب الدار ؟ فسأل المعجوز فعرف
انها للوزير الكبير . وان الصبية ابنته . ولما لاح الفجر عادا الى دار الخلافة
وقال الخليفة للمغني : اكم هذا الامر ولا تفوه به ابدا .

ولما كان الصباح وحضر الوزير الى دار الخلافة . بادره الخليفة
قائلاً : الك بنت ؟ قال : نعم يا مولاي .

فقال : اني اخطها اليك .

قال الوزير وهو يكاد يطير فرحاً :

- هي جاريتك يا مولاي .

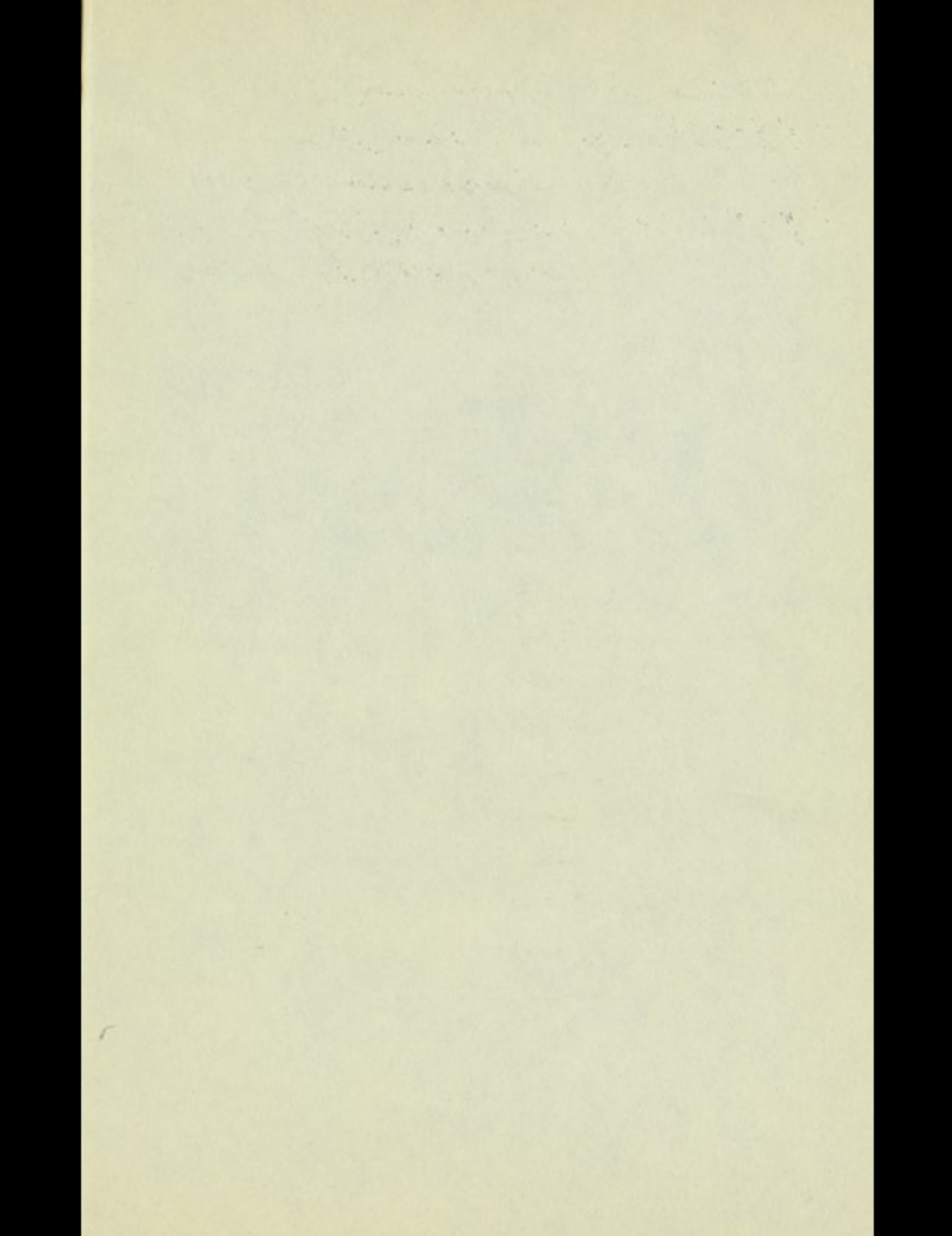
قال الخليفة :

- وقد امرتها ثلاثين الف دينار .. فاذا صار المال اليك فاحملها الينا .

لقد كان هذا الخليفة العتيد هو المأمون .

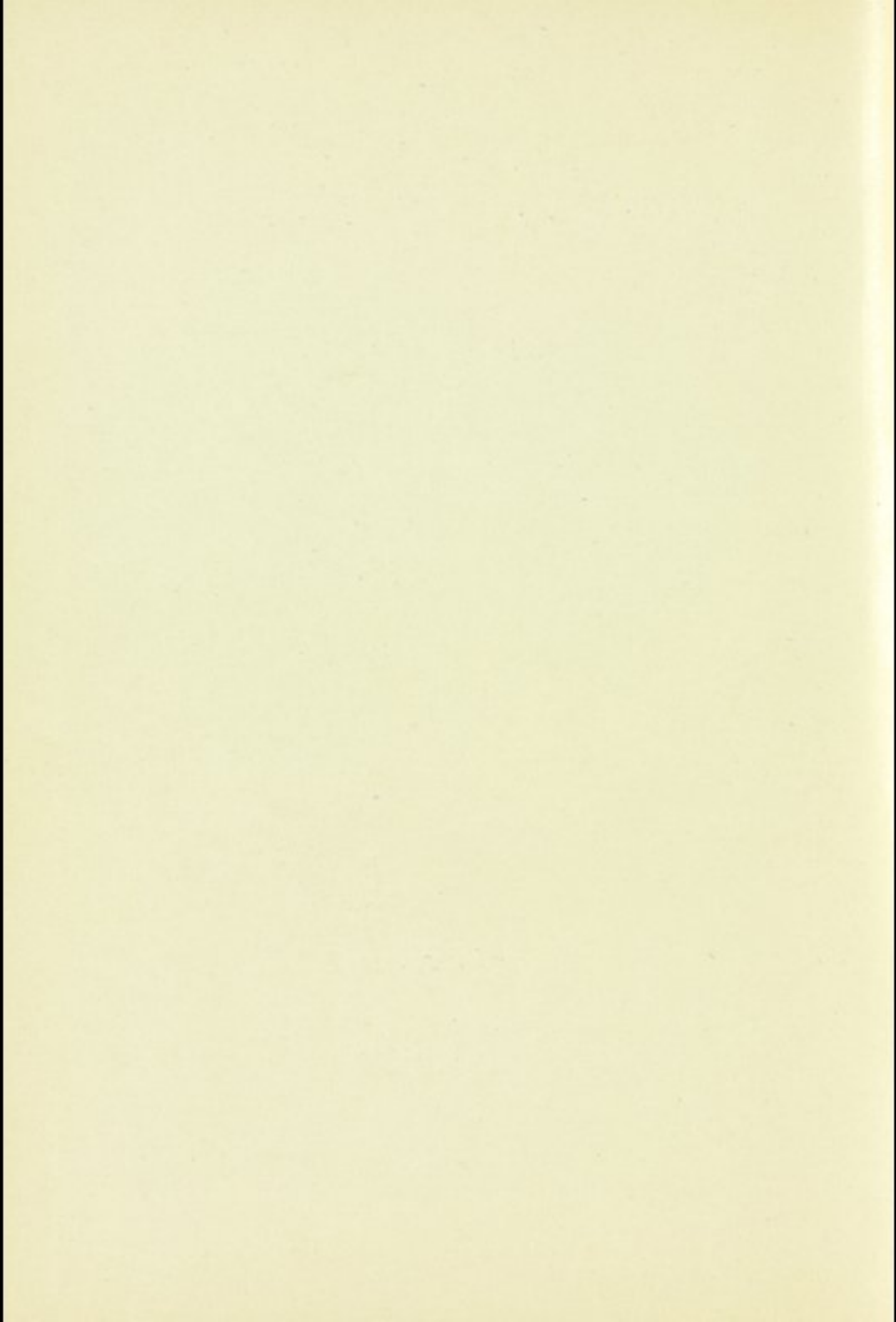
وكانت الصبية المغامرة هي بوران بنت الوزير الخطير الحسن بن

سهل . وهي التي اصبحت فيما بعد زوج المأمون ، ومن احب نسائه ال ٤ .
اما صاحبنا المغني فاسحاق بن ابراهيم الموصللي ، الذي طبقت شهرته
الآفاق في تلك الاحقاب ، والذي نقل عنه انه قال :
رأيت كثيراً من الناس ، من اشراف ، وأمراء ، وادباء . فلم أر
رجلاً يعدل المأمون ولا امرأة تفني ببوران .



الفهرس

الموضوع	الصفحة
الرقبة المجرمة	١
الحقد الكبير	١٣
وداعاً يادمشق	٢٣
انهزم أمام طفل	٣٩
سلاطين مخفية	٥٢
نعمة الصبا	٦٣
الله كريم	٧٤
خيط المنكبوت	٩١
ماتت قريرة العين	٩٩
قصة عمار	١٠٧
سراب	١١٩
شخصيات غير رسمية	١٢٩
الصقيع	١٤٣
العودة أو الموت	١٥٣
ومضة برق	١٦١
كوني حكيمة	١٧٣
بوران	١٨٥



صدر حديثاً

عن مكتبة اطلس برسوق

باشراف وزارة الثقافة والارشاد القومي



ق.س

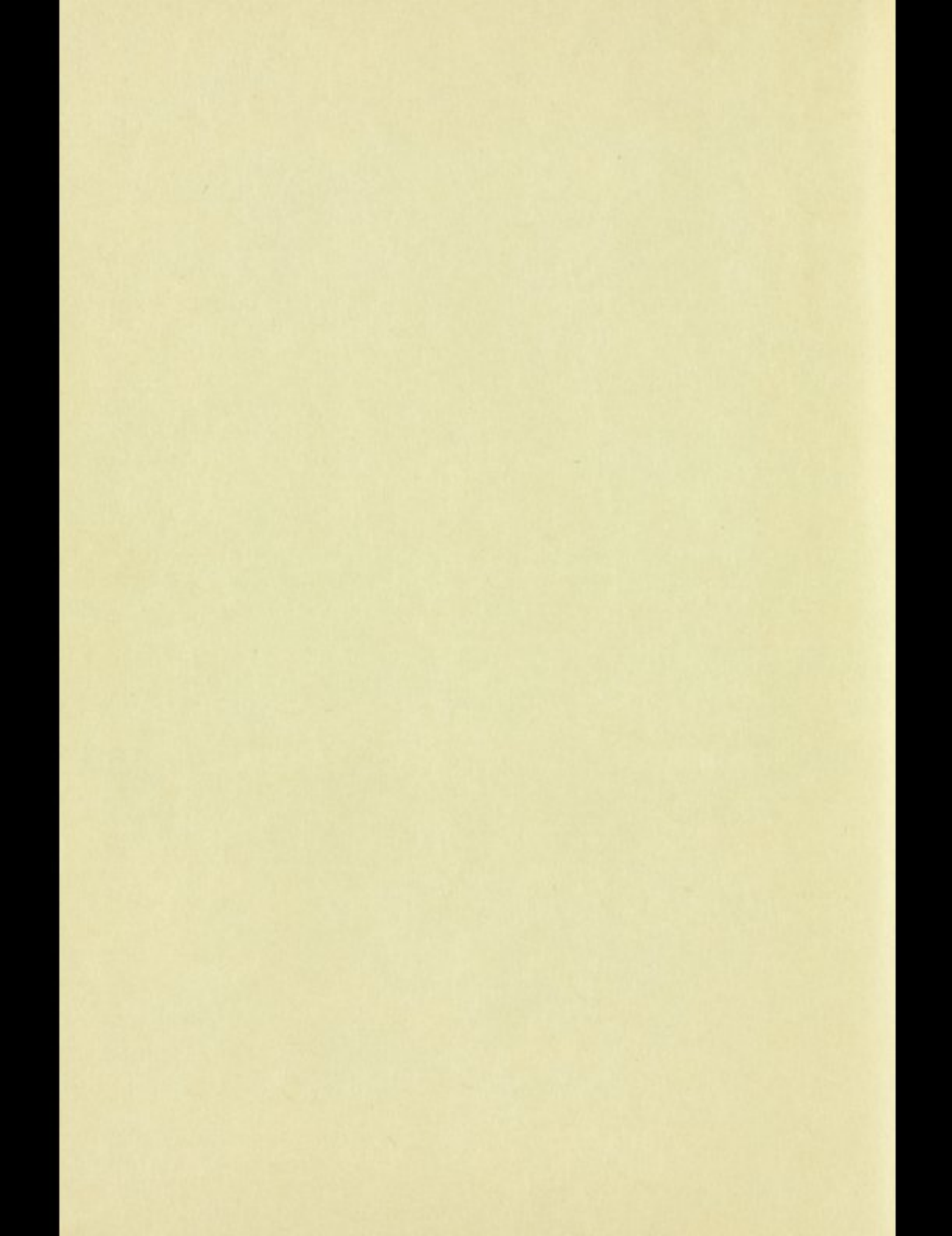
١٢٥	الدار الكبيرة	تأليف محمد ديب	ترجمة ساي دروي	
١٧٥	الحريق	=	=	=
١٥٠	النول	=	=	=
١٧٥	صيف افريقي	=	جورج سالم	=
٤٥٠	تاريخ الاشتراكية الاوربية	ايبي هالبي	الدكتور جمال اناسي	=
٢٧٥	الصواريخ والاقمار الصناعية	الدكتور وجيه السمان		
١٦٠	افريقيا الغربية في ظل الاسلام	نعيم قداح		

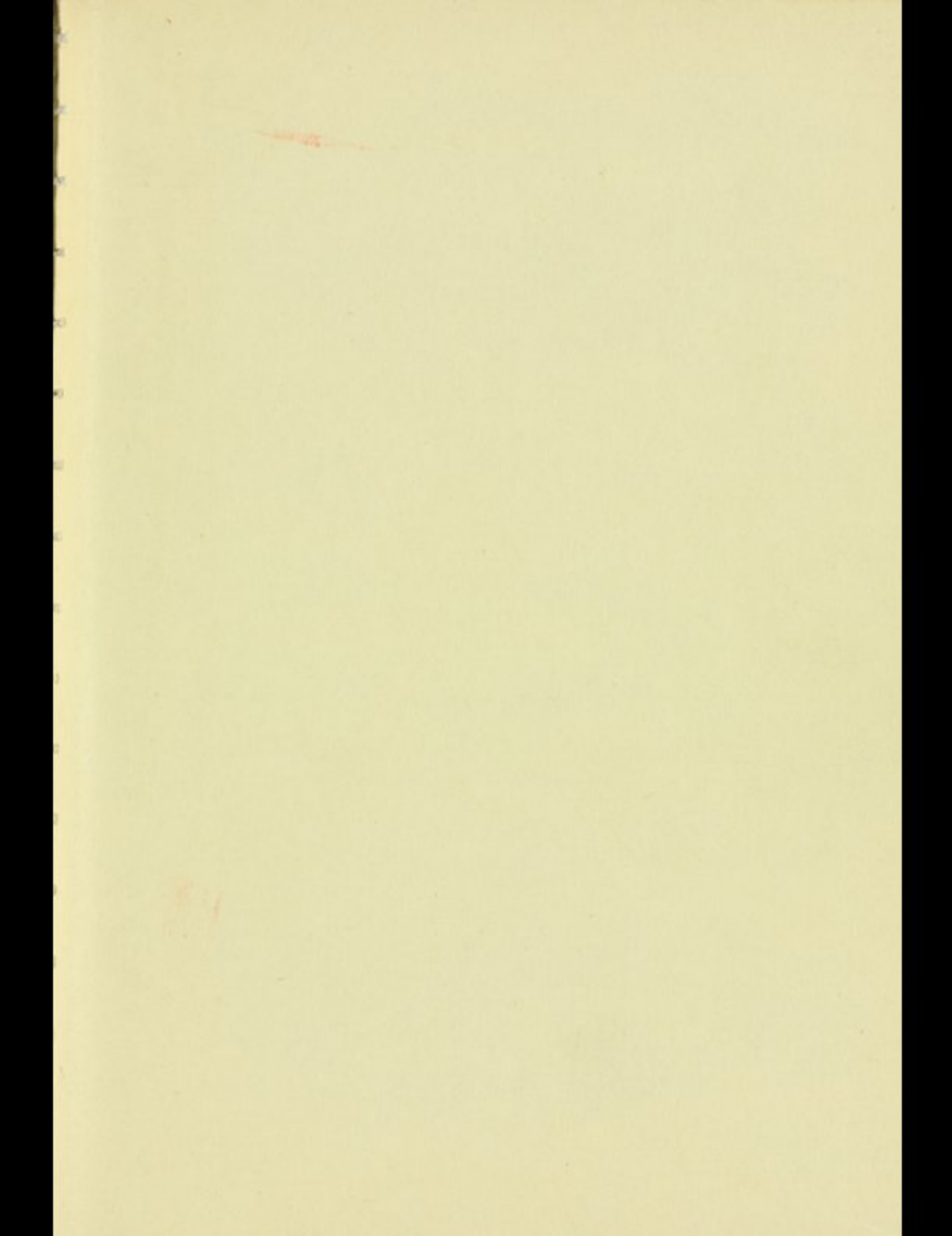
نشر ونوزيع

مكتبة اطلس

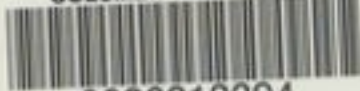
بدمشق

التمن « ١٥٠ ق.س »





COLUMBIA UNIVERSITY



0026813394

956.9
Sy27
5

NOV 18 1964

